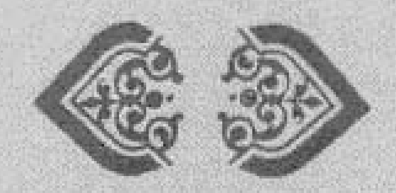


دراسات إسلامية



سيد قطب

دار الشروق

دراسات إسلامية

الطبعة السابعة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
الطبعة الثامنة
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
الطبعة التاسعة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
الطبعة العاشرة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الحادية عشرة
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الشروق ©
٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

سيد قطب

دراسات إسلامية

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

دراسات اسلامية

محطم الطواغيت

لقد عـاش محمد بن عبد الله – عليه صلوات الله وسلامه – يحطم الطواغيت ، الطواغيت كلها ، سواء كانت في عالم الضمير أم في عـالم الواقـع ، ولم تعرف البشرية في تاريخها الطويل رجلاً آخر غير محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – حطم مـن الطواغيت قدر ما حطم هذا الرجل ، وفي فترة من الزمـان قصيرة شديدة القصر ... مما يقطع بأن هنالك قوة أكبر من طاقة البشر كانت تؤيد هذا الرجل ؛ وأنه كان يستمد من هذه القوة ، وكان على اتصال بها وثيق .

وحين نستعرض الثورة التحررية الكبرى التي قادها محمد بن عبد الله ، خـلال ثلاثة وعشرين عـاماً ؛ ونستعرض الانقلابات الروحية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والادبية ، التي تمت في هذه الفترة القصيرة ... ندرك انه ما لم تتصل قوة البشر الفانية المحدودة ، بقوة الازل والابد المطلقة الخالدة ، فان هذه الخوارق كلها لم تكن لتتم ، وهي خوارق أعظم من نقل الجبال وتجفيف البحار ، وتحويل العناصر من حال الى حال .

لقد كانت رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – ثورة تحريرية كاملة للإنسانية ؛ ثورة شملت كل جوانب الحيـاة الإنسانية ،

وحطمت الطواغيت على اختلاف اسمائها في هذه الجوانب جميعاً.

كانت ثورة على طاغوت الشرك بالله في عالم العقيدة ، نزّهت الذات الإلهية تنزيهاً مطلقاً في عالم التصور ، نزّهته عن أن يكون له شركاء . وطاغوت الشرك بالله -على نحو من الانحاء- طاغوت ضخم ، عميق الجذور في مسارب الشعور الانساني . وما تزال البشرية تعاني منه بعد كل رسالات التوحيد السماوية ، وبعد كل كفاح الرسل ، وبعد كل شروح الفاهمين لتلك الديانات . وكلمّا انحرفت الجماهير عن الإدراك الصحيح لدين الله الواحد الخالد الذي تعددت صوره في الرسالات الإلهية ، وتوحّد جوهره - كلّما انحرفت الجماهير عن الادراك الصحيح التقت بطاغوت الشرك ، في صورة من صوره الكثيرة . وما التمسح بأعتاب الاولياء والقديسين في صورته التي يزاولها العوام ، إلا صورة من صور ذلك الطاغوت ، تتزيا بزي الدين ؛ ودين الله ، دين الله كله ، منها براء !

• • •

وكانت ثورة على طاغوت التعصب : التعصب في كل صوره وألوانه ، وفي مقدمتها التعصب الديني .

كانت ثورة على طاغوت التعصب ضد الجنس واللون ، فأعلنت وحدة الأصل الإنساني ، ووحدة النوع الإنساني ؛ وحطمت طاغوت العنصرية البغيضة ، وقررت ان هنالك مقياساً واحداً للأفضلية ، لا يرجع الى لون البشرة ، ولا الى أصل المولد ،

ولا الى نوع اللغة ، إنما يرجع الى تقوى الله وطاعته ، والعمل الصالح في عباده،وهي أمور شخصية بحتة، لاعلاقة لها بالأجناس والألوان : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله اتقاكم[1] ». «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء[2] » .. « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية،وليس منا من مات على عصبية[3] » .

وهذا الطاغوت – طاغوت التعصب العنصري – ما تزال المجتمعات الإنسانية التي لم تسترشد برسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – تعاني منه . فما تزال مشكلة الزنوج والهنود الحمر قائمة في الولايات المتحدة ، وما تزال مشكلة الملونين قائمة في جنوب افريقية . ومنذ سنوات كانت فلسفة النازي القائمة على امتياز الجنس الآري تذيق البشرية الويلات . واليوم تقوم إسرائيل كالشوكة في جنب الأمة العربية ، معتمدة على أسطورة الشعب المختار !

. . .

وكانت ثورة على طاغوت التعصب الديني، وذلك منذ إعلان حرية الاعتقاد في صورتها الكبرى : « لا إكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد

(١) سورة الحجرات : ٢٣ .

(٢) سورة النساء : ٢ . (٣) أخرجه ابو داود .

استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها »[1] . « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[2] .

لقد تحطم طاغوت التعصب الديني ، لتحل محله السماحة المطلقة ، بل لتصبح حماية حرية العقيدة وحرية العبادة واجباً مفروضاً على المسلم لأصحاب الديانات الأخرى في الوطن الإسلامي . وحينما شرع القتال في الإسلام وعرض القرآن حكمة القتال قال: « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً »[3] .

والصوامع معابد الرهبان ، والبيع كنائس النصارى ، والصلوات معابد اليهود ، والمساجد مصليات المسلمين. وقد قدّم الصوامع والبيع والصلوات في النص على المساجد ، توكيداً لدفع العدوان عنها ، وتوفير الحماية لها .

لا بل بلغت السماحة حد توفير الحماية والأمن للمشرك ، الذي لا يدين بدين سماوي ، ما دام ضعيفاً لا يقدر على إيذاء المسلمين وفتنتهم عن دينهم . ذلك تقديراً لعذره ، وعذره جهله: « وإنْ احدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »[4] وهي قمة في

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦. (٢) سورة يونس : ٩٩ .
(٣) سورة الحج : ٣٩ و ٤٠. (٤) سورة التوبة : ٦ .

السماحة ما تزال البشرية تتطلع اليها في كثير من الاوطان .
ويكفي أن نعرف أنه لا مكان في الرقعة الشيوعية كلها لمن لا يدين بالشيوعية — وهي مجرد فكرة اجتماعية وليست عقيدة دينية — وأن منافي سيبيريا ، وأعماق السجون ، ومذابح التطهير كلها في انتظار من لا يؤمنون بكارل ماركس ولينين وستالين .
وهم بشر ممن خلق الله !

• • •

وكانت ثورة على طاغوت التفرقة الاجتماعية والنظام الطبقي.
وكل شيء كان يهون على سادة قريش إلا تحطيم الفخر بالأنساب ، والاعتزاز بالآباء والأجداد، وما كان يخفى على ذكاء هؤلاء السادة ما في عقائدهم من سخف ، وما في اصنامهم من سذاجة ، وما كان يخفى عليهم أن مايدعوهم اليه محمد خير بما لايقاس مما هم عليه من عقيدة. ولكنهم كانوا يدفعونها بكل ما يملكون من قوة... لماذا؟ لأن ما يدعوهم اليه هو تحطيم سيادتهم وفوارقهم واعتزازهم بأنسابهم، ومقوماتهم الموروثة التي تمثل الطبقية بأعنف معانيها .

كانت جمهرة الحجيج تقف بعرفات وتفيض منها . أما قريش فكانت تقف بالمزدلفة ومنها تفيض . فجاء محمد — وهو من ذروة قريش — يقف بعرفات . والقرآن يأمر قريشاً فيقول : « ثم افيضوا من حيث أفاض الناس [1] » تحقيقاً للمساواة المطلقة بين جميع الناس .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٩ .

وكان الرجل من أشراف قريش يأنف أن يزوّج ابنته او اخته من الرجل العربي من عامة الناس . فجاء محمد — وهو من ذروة قريش — ليزوج ابنة عمه زينب بنت جحش من مولاه زيد.

وعن عائشة — رضي الله عنها — ان قريشاً اهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت . فقالوا : من يكلم فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا اسامة بن زيد حِب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلمه اسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتشفع في حدّ من حدود الله ؟ » ثم قام فاختطب . ثم قال : « إنما اهلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد . وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1].

وبعد محمد بألف واربعمائة عام، ما تزال البشرية تتطلع وهي تحاول في هذا المرتقى الصعب ان تبلغ الى الآفاق، التي بلغ اليها في عالم الحقيقة والواقع ، لا في المثال والخيال .

. . .

وكانت ثورة على طاغوت الظلم والبغي والطغيان . ثورة جردت الحكام والسلاطين من كل امتياز ، ومن كل سلطان ، لأنها ردّت الأمر كله لله في التشريع، وردّت الامر كله الى الأمة في اختيار من يقوم على تنفيذ التشريع ...

---

(١) رواه الشيخان .

وهنا لا بد من وقفة دقيقة تكشف عن عمق ما في هذا النظام من ضمانات لا يحققها أي نظام ... إن انتزاع حق التشريع من البشر وردّه الى الله وحده سبحانه ، لم يبق لواحد من البشر او لجماعة ، او لطبقة ، أي مجال للتحكم في الآخرين ، ولا أي منفذ يعلو به فرد على فرد او فرد على جماعة ، او طبقة على طبقة . إن الحاكمية كلها لله سبحانه ، وليس لغيره ان يشرّع الا استمداداً من شريعته ، والله رب الجميع . وإذن فلن تكون في تشريعه محاباة لفرد او جماعة او طبقة ، ولن يحس أحد انه حين ينفذ القانون خاضع لمشيئة أحد . إنما هو خاضع لله رب الجميع . ومن ثم تتساوى الرؤوس ، وترتفع الهامات جميعاً ، لأنها لا تعنو جميعاً الا لله وحده .

وأما من يقوم على تنفيذ التشريع ، فإنه لا يشرّع ، بل ينفّذ ، وهو يستمد حقه في القيام على التنفيذ من اختيار الأمة له . والطاعة المفروضة له ليست طاعة لشخصه ، إنما هي طاعة لشريعة الله التي يقوم على تنفيذها ، ولا حق له في الطاعة حين يتعداها . فإن وقع خلاف على أمر من أمور التنفيذ ، فالحكم فيه هو الشريعة ذاتها : « فإن تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول »[1] .

وبذلك يقف النظام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فريداً بين جميع أنواع النظم التي عرفتها البشرية قديماً وحديثاً .

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

يقف فريداً في تحقيق المساواة المطلقة في نظام الحكم ، وفي تحطيم كل ظل لطاغوت السلطان الفردي ، او السلطان الطبقي ، في عالم التشريع .

أما العدل في التنفيذ ، فقد بلغ الى قمة لا تكاد البشرية حتى اللحظة تتطلع اليها ، فضلاً عن ان تحاولها وترقاها : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »[1] ... « ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . إعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله »[2] .

« فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه الحب او البغض ، ولا تغير قواعده المودة والشنآن . العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ، ولا بالتباغض بين الأقوام ، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعاً ، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب ، ولا مال ولا جاه ، كما تتمتع به الأقوام الأخرى ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن . وتلك قمة في العدل لا يبلغها أي قانون دولي الى هذه اللحظة ، ولا أي قانون داخلي كذلك .

« والذين يمارون في هذا ، عليهم ان يراجعوا عدالة الأقوياء للضعفاء بين الأمم ، وعدالة المتحاربين بعضهم بالقياس الى بعض. ثم عليهم ان يراجعوا عدالة البيض للحمر والسود في الولايات المتحدة ، وعدالة البيض للملونين في جنوب افريقية . وفي الإشارة ما يغني فهي أحوال معاصرة يعلمها كل إنسان .

« والمهم في عدالة الإسلام أنها لم تكن مجرد نظريات ، بل

---

(١) سورة الانعام : ١٥٢. (٢) سورة المائدة : ٨.

أخذت طريقها الى واقع الحياة ، فحفظ الواقع التاريخي منها أمثلة متواترة [1] .

وكانت ثورة على طاغوت الرق . ثورة رفعت الرقيق من مرتبة الشيء او مرتبة الحيوان ، الى مرتبة الإنسان . وهـــذا هو البيان :

« وكان الرق نظاماً عالمياً . وكان العبيد في الدولة الرومانية يعاملون معاملة طابعها القسوة ، فهم يعملون نهاراً في الإقطاعيات . فاذا ما جنّ الليل كبّلوا بالسلاسل ، وألقي بهم في الكهوف التي يقضون فيها الليل ، ويقوم عليهم حراس أشدّاء غلاظ القلوب ، وكانت العقوبات التي توقع عليهم تتراوح بـين الجلد والصلب ، وهذا خلاف استخدامهم كوسيلة لتسلية الاحرار ، وذلك باقامة المبارزات الوحشية ، او بجملهم على مقاتلة الأسود ، وكان ذلك كله يجري في حفلات يقبل عليها الاحرار في شغف » [2] .

وجاء محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – ليقول : «من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه [3] » ، وليقول : «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يديه فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه

---

(١) عن كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ص ٩٥ و ٩٦ .

(٢) عن كتاب « النظام الاشتراكي » للدكتور راشد البراوي ص ١٨ .

(٣) رواه الشيخان .

عليه »[1] ... وعن أبي مسعود الانصاري – رضي الله عنه – قال: « كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً: إعلم أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه. فالتفت فاذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقلت: يا رسول الله هو حرٌ لوجه الله. فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار، او لمستك النار[2] ».

أما لماذا لم يبطل محمد الرق كلية، ولأول وهلة، فقد كان الأمر أمر وضع اجتماعي وعرف دولي، في استرقاق الاسرى، وفي استخدام الرقيق. والاوضاع الاجتماعية تحتاج الى تعديل شامل لمقوماتها وارتباطاتها، والعرف الدولي يحتاج الى اتفاقات دولية ومعاهدات جماعية. ولم يأمر الاسلام بالرق قط، ولم يرد في القرآن نص على استرقاق الاسرى عرفاً دولياً. فلم يكن بد ان يتريث في علاج هذا الوضع الاجتماعي القائم، والنظام الدولي الشامل ...

وقد اختار ان يجفف منابع الرق وموارده، حتى ينتهي بهذا النظام كله مع الزمن الى الإلغاء، دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها .. بدأ بتجفيف موارد الرق ومنابعه كلها، فيما عدا أسرى الحرب الشرعية، ذلك ان المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين حسب العرف الدولي العام في ذلك الزمان، وما كان الاسلام قادراً يومئذ على

---

(١) رواه صاحب مصابيح السنة من الصحاح.

(٢) المصدر السابق، من الصحاح.

ان يجبر هذه المجتمعات على مخالفة ذلك العرف الدولي . ولو انه قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان هذا اجراءً مقصوراً على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين . بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيء في عالم الرق هناك . وفي ذلك إطماع للمعادين للإسلام في أهل الإسلام . لهذا الوضع الاجتماعي القائم لم ينص القرآن على استرقاق الأسرى، بل قال : « فأما منّاً بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » . ولكنه كذلك لم ينص على عدم استرقاقهم . وترك الدولة المسلمة تعامل أسراها حسب ما تتفق عليه مع محاربيها . فتفدي من تفدي من الأسارى من الجانبين ، وتتبادل الاسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين . كي لا يصبح الاسارى من المسلمين أرقاء . والاسارى من الكفار طلقاء . وذلك الى أن يتنسى تنظيم هذا العرف باتفاق . وبتجفيف موارد الرق كلها فيما عدا هذا المورد الذي لا اختيار للإسلام فيه ، يقل العدد .. وهذا العدد القليل أخذ يعمل على تحريره بمجرد ان ينضم الى الأمة الإسلامية ويقطع صلته بالكفار المحاربين . فجعل للرقيق حقه كاملاً في طلب الجزية يدفع فدية عنه يكاتب عليها سيده . ومنذ هذه اللحظة يملك حرية العمل وحرية الكسب والتملك ، فيصبح أجر عمله له ، وله ان يعمل في غير خدمة سيده ليحصل على فديته ، ثم له نصيبه من بيت المال في الزكاة . والمسلمون مكلفون فوق هذا ان يساعدوه بالمال على استرداد حريته .. وذلك غير الكفارات التي لا تقضي إلا بعتق رقبة كالقتل الخطأ

والظهار وما اليه .. وبذلك ينتهي وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن، لأنه عميق الجذور في التنظيم الاجتماعي والعرف الدولي»[1]

• • •

وكانت ثورة على طاغوت « الرجل » . أجل ، طاغوت الرجل وطغيانه على المرأة ! ثورة قررت للمرأة حقوقها الإنسانية في صورة شريعة لا رجعة فيها ولا نكسة . وفي الوقت الذي كانت بعض الحلقات في رومة تبحث فيما اذا كانت المرأة ذات روح ، كان القرآن الكريم يقول : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض »[2]. « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون »[3] .. « للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن »[4] ... وبذلك يقرر حق المرأة في الحياة الروحية وفي الحياة المادية ، على قدم المساواة مع الرجل، دون تلعثم ولا تردد ولا جدال

وكان — رسول الله صلى الله عليه وسلم — يقول . « لا تنكح الثيّب حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن . وأذنها صمتها[5] » ...

---

(١) عن كتاب : « في ظلال القرآن » الجزء الثاني ص ٥٩ و ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٥. (٣) سورة النساء : ٧

(٤) سورة النساء : ٣٣ .

(٥) رواه الشيخان .

وبذلك يقرر حريتها في حياتها الشخصية ، وحرية اختيارها في شركة الحياة .

لقد عاش محمد بن عبد الله - عليه صلوات الله وسلامه - يحطم الطواغيت : الطواغيت كلها ، سواء كانت في عالم الضمير أم عالم الواقع ، ولم تعرف البشرية في تاريخها الطويل ، رجلاً آخر غير محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - حطم من الطواغيت قدر ما حطم هذا الرجل ، وفي فترة من الزمان قصيرة، شديدة القصر ..

★

انتصار محمّد بن عبد الله

إن انطلاق ملايين الأصوات ، في مشارق الأرض ومغاربها تردّد آناء الليل وأطراف النهار ، : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

إن انطلاق هذه الاصوات طوال أربعة عشر قرناً ، لا تصمت ولا تخفت ، ولا تموت . تتبدل الدول ، وتتغير الاحوال ، ولا تتبدل الصيحة الخالدة ، التي انطبعت في ضمير الزمان .

ان انطلاق هذه الاصوات ، هو الدليل الحي الناطق على انتصار محمد بن عبد الله .

إنه ليس انتصاراً في غزوة ، ولا انتصاراً في معركة . انه ليس فتح مكة ، ولا ضم جزيرة العرب ، ولا اخضاع مملكتي كسرى وقيصر . انما هو النصر الكوني الذي يدخل في بنية الحياة ، ويغيّر مجرى التاريخ ، ويصرّف اقدار العالم ، وينطبع في ضمير الزمان .

إنه النصر الذي لا يذهب به ضعف طارىء على الأمة المسلمة

في وقت من الاوقات ، ولا يغض من قيمته بروز مذاهب جديدة وفلسفات ، ولا يطفىء من نوره غلبة فريق على فريق في رقعة من الأرض ، لأن جذوره ضاربة في أعماق الكون ، متأصلة في ضمير البشر ، ذاهبة في مسارب الحياة .

إنه النصر الذي يحمل دليله في ذاته لا يحتاج الى دليل او برهان .

فلنحاول اذن أن ندرك أسبابه ووسائله ، لنحاول نحن الوسائل ، ولنأخذ اليوم بالأسباب .

انه ما من شك ان الله كان يريد لمحمد بن عبد الله ان ينتصر ، وكان يريد لهذا الدين القويم أن يسيطر . ولكن الله لم يرد أن يجعل النصر هيناً ليناً سهلاً ميسوراً ، ولم يرد أن يجعله معجزة لا يد فيها للجهد البشري ولا وسيلة ، انما جعله ثمرة طبيعية لجهد الرسول – ﷺ – وجهاده ، ونتيجة منطقية لتضحياته وتضحيات أصحابه .

فمن شاء أن يعرف كيف انتصر الرسول ، وكيف انتصر الاسلام ، فليدرس ذلك في شخصه وسلوكه وسيرته وجهاده ، ليعلم أن طريق النصر مرسوم ، وإن وسائله حاضرة ، وأن أسبابه قائمة، وان على من أراد النصر في أي زمان وفي أي مكان. ان يجعل قدوته في الرسول نفسه – عليه الصلاة والسلام .

لقد انتصر محمد بن عبد الله ، وكان لنصره مقومات ثلاثة فيها تكمن سائر المقدمات .

انتصر محمد بن عبد الله ، يوم ان جاء وجوه قريش يحاجُّون عمه ابا طالب، يطلبون إليه أن يعرض على ابن أخيه الذي أقلقهم في دينهم ، وأزعجهم في تقاليدهم ، وهزّهم في معتقداتهم ان يسكت عنهم وعن آلهتهم ، وله في ذلك ما يشاء ، ان كان يريد مالاً أعطوه ،وإن كان يريد سيادة سودوه وله فيهم بعد ذلك ما يريد .

لقد انتصر محمد بن عبد الله ، وهو يلقي في اسماعهم واسماع الزمان ، بقولته الخالدة المنبثقة من ينابيع الايمان ، والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

يا لله ! يا للروعة المزلزلة . يا للصورة الكونية الهائلة . لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري . انها صورة منتزعة من ضمير الكون لا من خيال انسان . إنها الصورة التي يبعثها الإيمان المطلق من قرارة الوجدان .

لقد انتصر من يومها محمد بن عبد الله ، ولقد هزّ وجدان قريش هزة لم تتماسك بعدها أبداً . إنه الإيمان ، القوة التي لايغلبها شيء في الأرض ، متى استقرت في وجدان إنسان .

وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه – عليهم رضوان الله – صوراً حية من إيمانه، تأكل الطعام وتمشي في الاسواق . يوم صاغ من كل منهم قرآناً حياً يدب على الارض . يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام ، يراه الناس فيرون الاسلام .

ان النصوص وحدها لا تصنع شيئاً ، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً ، وإن المبادىء وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكاً .

ومن ثم جعل محمد هدفه الاول أن يصنع رجالاً لا أن يلقي مواعظاً ، وان يصوغ ضمائر لا ان يدبج خطباً ، وأن يبني أمة لا أن يقيم فلسفة . أما الفكرة ذاتها فقد تكفّل بها القرآن الكريم ، وكان عمل محمد - ﷺ - أن يحوّل الفكرة المجردة الى رجال تلمسهم الأيدي وتراهم العيون .

فلما انطلق هؤلاء الرجال في مشارق الأرض ومغاربها ، رأى الناس فيهم خلقاً جديداً لا عهد للبشرية به ، لأنهم كانوا ترجمة حية لفكرة لا عهد للبشرية بها . عندئذ آمن الناس بالفكرة لأنهم آمنوا بالرجل الذي تتمثل فيه ، واندفعوا يحققونها في ذواتهم بالقدوة ، فيسلكون نفس الطريق .

وما كانت الأفكار المجردة وحدها لتعيش ، وان عاشت ، فما كان لها أن تدفع بالبشرية خطوة واحدة الى الأمام . كل فكرة عاشت قد تمثلت بشراً سوياً . وكل فكرة عملت قد تحولت حركة إنسانية .

ولقد انتصر محمد بن عبدالله ، يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصاً ، وحوّل إيمانهم بالإسلام عملاً ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفاً . ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق ، انما طبعها بالنور على صحائف من القلوب .

وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطي وتقول بالفعل والعمل ما هو الاسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله من عند الله .

وأخيراً فقد انتصر محمد بن عبد الله ، يوم أن جعل لشريعة الاسلام نظاماً يحكم الحياة ، ويصرف المجتمع ، وينظم علاقات الناس ، ويسيطر على أقدار الرجال والأشياء سواء .

إن الاسلام عقيدة تنبثق منها شريعة ، فيقوم على هذه الشريعة نظام . ومن العقيدة والشريعة والنظام تتكون شجرة الاسلام ، كما تتكون كل شجرة ، من جذر وساق وثمرة .

فلا ساق ولا ثمار بلا جذور ضاربة في الأعماق . ولا قيمة لجذور لا تنبت ساقاً. ولا جدوى في ساق لا تعطي أكلها للحياة.

لذلك حرص الاسلام على أن يكون الحكم لشريعته في الحياة: « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ولذلك اختفت من الاسلام أسطورة فصل الدين عن الدولة لأنه لا دولة بلا دين ، ولا دين بلا شريعة ونظام .

ومنذ اليوم الأول لبناء الدولة الاسلامية كانت شريعة الاسلام هي التي تحكم هذه الدولة ، وكان صاحب الشريعة هو الذي يتولاها .

ولقد بدأت الدولة الاسلامية منذ أن كان المسلمون حفنة من الناس ، يملكون ان يدفعوا عن أنفسهم العدوان ، وأن يحموا أنفسهم من الفتنة عن دين الله ؛ وأن يتحيزوا في رقعة من

الأرض يظللها علم الاسلام .

عندئذ تحول الاسلام الى نظام اجتماعي ، ينظم العلاقات بين المسلمين . والى نظام دولي يعاملون على أساسه سواهم من الناس.

ثم انساح الاسلام في جنبات الأرض يحمل معه حيثما حلَّ عقيدته وشريعته ونظامه . فمن شاء أن يدخل في عقيدته دخل. ومن لم يشأ فإنه: « لا اكراه في الدين » ، ولكن شريعة الاسلام ونظامه يظلان كل أرض دخل اليها الاسلام ، فيجد الناس فيها عدلاً لم تعرفه البشرية من قبل وبراً لم تطعمه البشرية من قبل . وعندئذ يدخل الناس في دين الله أفواجاً، وعندئذ يحق وعد الله لرسوله :

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً ، فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

لقد انتصر الاسلام لأن العقيدة الاسلامية تُرجمت الى شريعة، فأوجدت هذه الشريعة نظاماً تهفو اليه مشاعر الناس ، وتطمئن اليه قلوب العالمين .

عندئذ انتصر محمد بن عبدالله،لأنه نـفّذ شريعة الله كما ارادها الله .

تلك كانت مقومات ذلك النصر الخـالد في ضمير الكون ، الضارب في جذور الحياة ، الذي ترتفع به ملايين الأصوات في مشارق الأرض ومغاربها ، وتترنم به ملايين الشفاه .

وهي مقومات طبيعية منطقية واقعية . مقومات نملكها نحن المسلمين في كل جيل وفي كل زمان . مقومات حاضرة في أيدينا نملك ان نحاولها وان نجربها وان نصل بها الى النصر الذي قدّره الله لمن ينصرون الله :

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » .

صدق الله العظيم .

★

الاسلام يكافح

الذين يفهمون أن مبدءاً ما من المبادىء التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل، يمكن أن يكافح المظالم بأنواعها كما يكافحها الاسلام، أو يمكن أن يقف بجانب المظلومين جميعاً كما يقف الاسلام، أو يمكن أن يصرخ في وجوه الطغاة والمتجبرين كما يصرخ الاسلام ... الذين يفهمون هذا مخطئون كل الخطأ، أو مغرضون كل الغرض، أو جاهلون بالاسلام كل الجهالة.

والذين يفهمون انهم مسلمون، ثم لا يكافحون المظالم بأنواعها كفاحاً، ولا يدافعون عن المظلومين كلهم دفاعاً، ولا يصرخون في وجه الطغاة والمتجبرين صراخاً ... الذين يفهمون هذا مخطئون كل الخطأ، أو منافقون كل النفاق، أو جاهلون بالاسلام كل الجهالة ...

وهذه أخرى.

إن الاسلام في صميمه حركة تحريرية، تبدأ في ضمير الفرد وتنتهي في محيط الجماعة. وما يعمر الاسلام قلباً، ثم يدعه مستسلماً خاضعاً خانعاً لسلطان على وجه الأرض، الا سلطان الواحد القهار. وما يعمر الاسلام قلباً ثم يدعه صابراً ساكناً على

الظلم في صورة من صوره جميعاً ، سواء وقع هذا الظلم على شخصه أو وقع على الجماعة الانسانية في أية أرض وفي ظل أي سلطان .

فإذا رأيت المظالم تقع ، وإذا سمعت المظلومين يصرخون ، ثم لم تجد الأمة الاسلامية حاضرة لدفع الظلم ، وتحطيم الظالم ، فلك أن تشكّ مباشرة في وجود الأمة الاسلامية . فما يمكن أن تحمل القلوب الاسلام عقيدة ، ثم ترضى بالظلم نظاماً ، وبالسجن شريعة .

إنه إسلام أو لا إسلام ... إسلام ، فهو كفاح لا يهدأ ، وجهاد لا ينقطع ، واستشهاد في سبيل الحق والعدل والمساواة . أو لا إسلام ، فهو إذن همهمة بالأدعية ، وطقطقة بالمسابح ، وتمتمة بالتعاويذ ، واتكال على أن تمطر السماء على الأرض صلاحاً وخيراً ، وحرية وعدلاً . وما كانت السماء لتمطر شيئاً من هذا كله ، وما كان الله لينصر قوماً لا ينصرون أنفسهم ، ولا يثقون بأهلهم ، ولا ينفذون شريعته في الجهاد والكفاح : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » .

إن الإسلام عقيدة ثورية حركية ، بمعنى انه ما يكاد يمس القلب الإنساني مساً صحيحاً حتى يحدث فيه إنقلاباً : إنقلاباً في التصورات ، وانقلاباً في المشاعر ، وانقلاباً في تيسير الحياة ، وعلاقات الأفراد والجماعات ... انقلاباً يقوم على المساواة المطلقة بين بني الإنسان جميعاً ، لا فضل لأحد فيهم على أحد

الا بالتقوى ، ويقوم على الكرامة الانسانية التي لا تترك لمخلوق في الارض ، ولا لحدث من أحداثها ، ولا لقيمة من قيمها . ويقوم على العدالة المطلقة التي لا تطيق البغي من أحد ، ولا ترضى بالبغي على احد ... ثم ما يحس الانسان حرارة هذه العقيدة حتى يندفع الى تحقيقها في الواقع العملي بكل نفسه . فما يطيق صبراً ولا سكوناً ولا سكوتاً الا أن يتم له تحقيقها فعلاً ... ذلك تأويل ان الاسلام عقيدة ثورية حركية .

فالذين يؤمنون بالله حق الايمان ، هم الذين يجاهدون في الله حق جهاده ، ثم هم الذين يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا . وكلمة الله في هذه الأرض لا تتحقق الا أن يُرفع البغي والظلم منها وإلاّ أن يصبح الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

والذين يبصرون بالظلم في كل طريق ، ويلتقون بالبغي في كل ثنية ، لا يحركون يداً ولا لساناً ، وهم قادرون على تحريك اليد واللسان ، أولئك لم يعمر الإسلام قلوبهم . فلو عمرها لانقلبوا مجاهدين مكافحين منذ أن تمس الشعلة المقدسة تلك القلوب العاقلة فتشعلها وتدفعها إلى المعركة دفعا .

وإذا كانت الروح القومية تملك أن تدفع بنا اليوم إلى كفاح الاستعمار الباغي البغيض .

وإذا كانت الروح الاجتماعية تملك أن تدفع بنا اليوم الى كفاح الإقطاع الفاجر والرأسمالية الطاغية .

وإذا كانت روح الحرية الفردية تملك أن تدفع بنا اليوم الى كفاح الطغيان الباغي والعسف المتجبر .

فروح الاسلام تجمع الاستعمار والإقطاع والطغيان كلها في عنوان : البغي ... وتدفع بنا جميعاً الى كفاحها جميعاً بلا تلعثم ولا تردد ، وبلا جدال ولا تفرق . وتلك مزية الاسلام الكبرى في ميدان الكفاح البشري للحرية وللعدل وللكرامة .

إنه ما من مسلم يستشعر قلبه روح الاسلام ، يمكن أن يمد الى المستعمرين يداً ، أو يقدّم لهم عوناً ، أو يهادنهم يوماً ، أو يكفّ عن حربهم خفية وجهراً ، وإنه لخائن لدينه ، قبل أن يكون خائناً لوطنه أو خائناً لقومه أو خائناً لشرفه — كل رجل لا يحسُّ للمستعمرين العداوة والبغضاء ولا يُشنُّ عليهم الحرب فيما استطاع . فكيف بمن يعقد معهم معاهدات الصداقة ؟ وكيف بمن يحالفهم حلف الأبد ؟ وكيف بمن يقدم لهم العون في السلم ، وفي الحرب ؟ وكيف بمن يمدّهم بالطعام وقومه جياع ؟ وكيف بمن يقف دونهم رداءاً لهم وستراً !

وإنه ما من مسلم يستشعر قلبه روح الاسلام يمكن أن يدع الإقطاع الفاجر والرأسمالية الطاغية في أمن وطمأنينة ،لايكشف مخازيها ، ولا يبين شناعاتها ، ولا يصرخ في وجهها الكالح ، ولا يجاهدها باليد واللسان والقلب ما استطاع الى ذلك سبيلا ... وكل يوم يمرُّ دون جهاد ، وكل ساعة تمرُّ دون كفاح ، وكل لحظة تمرُّ دون عمل ... إثم يستشعره ضميره ، ووزرٌ ينوء به

شعوره ، وخطيئة لا يكفّر عنها إلا الجهاد الدافق الحار الفوّار .

وإنه ما من مسلم يستشعر قلبه روح الاسلام يمكن أن يدع الطغيان الظالم والعسف السافر يدبُّ على هذه الارض ، ويستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . انما يندفع المسلم بروحه وماله ليلبي دعوة الخالق الرازق : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

كن مسلماً فحسب .. فهذا وحده يكفي لأن يدفعك الى كفاح الاستعمار في شجاعة واستماتة وتضحية واستبسال . فإن لم تفعل فتحسَّس قلبك ، عسى أن تكون مخدوعاً في حقيقة إيمانك . وإلاّ فما صبرك عن كفاح الاستعمار ؟

كن مسلماً فحسب .. فهذا وحده يكفي لأن يدفعك الى كفاح المظالم الاجتماعية جميعاً ... كفاحاً جاهراً دافقاً فائراً . فإن لم تفعل فتحسَّس قلبك عسى أن تكون مخدوعاً في حقيقة إيمانك . وإلاّ فما صبرك عن كفاح العدوان ؟

كن مسلماً فحسب .. فهذا وحده يكفي لأن يدفعك الى كفاح الطغيان ، في صلابة واستهانة بقوى الذباب الذي يحسبه الضعاف من العقبان ! . فإن لم تفعل فتحسَّس قلبك عسى أن تكون مخدوعاً في حقيقة إيمانك . وإلاّ فما صبرك عن كفاح الطغيان ؟

إن مبادىء الأرض جميعاً ، وإن مذاهب الأرض جميعاً لتتفرق ليختار كلٌ منها ميدانه ، لتحقيق العدل والحق والحرية . . فأما الاسلام فيكافح في الميادين جميعاً . ويحتضن الحركات التحررية جميعاً . ويجنّد المكافحين لها جميعاً .

وحينما يستند أصحاب المبادىء والمذاهب إلى قوة من قوى الأرض الزائلة ، يستند الإسلام الى قوة الأزل والأبد، ويخوضون المعركة وملء قلوبهم شوق الى الاستشهاد في الأرض لينالوا حياتهم في السماء :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فَيَقْتُلُون وَيُقْتَلُون وعْداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ » .

★

طبيعة الفتح الإسلامي

يخيل إليّ أحياناً أن طبيعة الفتوح الإسلامية وبواعثها وأهدافها الحقيقية ليست مجهولة من الغربيين فحسب — ممن يحسبون المدّ الاسلامي كان حركة سيف ، وهجرة جنس ، ودفعة اطماع — بل إنها مجهولة كذلك من كثرة المسلمين ، الذين يحسبون مجرد التوسع في الفتوحات العسكرية كسباً للاسلام ، ومأثرة للفاتحين في جميع العصور .

هؤلاء وهؤلاء سواء ، في البعد عن إدراك طبيعة الفتوح الإسلامية ، وبواعثها وأهدافها الحقيقية . وانه ليحسن أن نصحح تلك الصورة المزوّرة او المشوهة لا للفتوح الإسلامية ، بل للفكرة الإسلامية ذاتها في النهاية .

قال تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .
وقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

وسُئل رسول الله ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذِكْر ، والرجل يقاتل ليرى . فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

هذه النصوص الثلاثة من القرآن والحديث تكشف لنا عن طبيعة الحروب الاسلامية وطبيعة الفتوح الاسلامية اجمالا .

ان الاسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد اكراه أحد على الدخول في الاسلام . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التي تثيرها العصبية الدينية بهذا المعنى ؛ والتي ذاق العالم من ويلاتها لا في الحروب الصليبية المعروفة فحسب ، ولا في الاضطهاد الاسباني للمسلمين في الاندلس فحسب ، بل في كثير من بقاع الأرض ، وفي كثير من أدوار التاريخ ؛ والتي ما تزال البشرية الى يومنا هذا تتجرع مرارتها ، وإن كانت تتخفى تحت عنوانات أخرى غير عنوان التعصب الديني !

والاسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح بقصد سيادة عنصر أو تغليب جنس ، فالناس قد جُعِلُوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا ؛ لا ليستذل بعضهم رقاب بعض ، ولا ليسود جنس او شعب . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التي تثيرها عصبية الجنس او اللون او اللغة . والتي ذاق العالم وما يزال يذوق ثمراتها المُرَّة ،حتى في العصور الحديثة، التي يزعم الزاعمون أنها تحضرت ، وارتفعت على دوافع القبيلة !

كذلك يستبعد الاسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد جر المغانم . وبذلك يستبعد كافة الفتوح الاستعمارية ، التي تكمن وراءها مطامع اقتصادية ، كفتح

الأسواق واستجلاب الخامات ، واستغلال الموارد ؛ او الحصول على مراكز استراتيجية ، وميزات عسكرية ؛ تلك الفتوحات التي عانت البشرية وما تزال تعاني من ويلاتها ، والتي تقوم الحضارة الغربية الراهنة على أساسها ، لأنها مقوّم أساسي من مقوّماتها .

وأخيراً يستبعد الاسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ؛ بقصد اكتساب أمجاد شخصية للملوك والقواد ، أو إرضاء نزعات الاستعلاء والسيطرة والبروز ، التي تهيمن على أولئك الرجال ، فيسخّرون من أجلها الشعوب ، لإضافة شارة الى تاج ، أو وسام إلى رداء !

ومن ثم يتعين باعث واحد ، وهدف واحد للفتح الاسلامي ، هو الذي يقول عنه الرسول ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

إنها اذن فكرة هي التي يراد نشرها ويراد تحقيقها : أن تكون كلمة الله هي العليا . فما هي « كلمة الله » المعنية في هذا الحديث ؟ ما طبيعتها ؟ وما حدودها ؟ إنه لا بد لنا أن ندرك طبيعة هذه الفكرة وحدودها لكي ندرك طبيعة الفتح الاسلامي ، ولكي ندرك الفارق بينه وبين الفتوح العسكرية الأخرى . ثم لندرك أن الفتوح الاسلامية كانت في حدود الفكرة الاسلامية ؛ وأيها لم يكن ولو أنه تمّ على أيدي المسلمين .

قال تعالى : « إن الدّين عند الله الإسلام » ، « ومن يَبْتَغ

غير الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه » .

فتحقيق كلمة الله وجعلها هي العليا يتضمن أن يصبح الاسلام لله هو دين البشرية كافة . الإسلام لله على إطلاقه بمعنى إخلاص القلب لله دون سواه . والنظرية الإسلامية تعتبر أن جميع الرسل قد جاءوا بالاسلام على هذا المعنى ، وأن جميع الرسالات قد قامت على أساسه ، وأن محمداً ﷺ : إنما جاء بالإسلام في صورته الأخيرة التي ارتضاها الله للبشرية كافة ؛ وأن القرآن إنما جاء « مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » ، ومن ثم ينبغي أن يفيء الناس كلهم اليه ، فتتحقق كلمة الله في الأرض ، وتصبح كلمة الله هي العليا . وهذه إحدى معاني كلمة الله في هذا السياق .

إلا أن الطريقة لأن يفيء الناس إلى هذا الدين الأخير لايجوز أن تخرج على القاعدة الكلية التي قرّرها : «لا إكراه في الدين»، والمطلوب من رسول الاسلام ومعتنقيه أن يحاولوا هداية الناس إليه بالدعوة اللينة والموعظة الحسنة : « أُدْعُ الى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

فاذا وقفت قوة مادية في وجه الدعوة السلمية ، فهنا فقط يجوز حمل السلاح ، لتقرير حرية الدعوة . كذلك إذا تعرضت هذه القوة للذين استجابوا للدعوة كي تفتنهم عن دينهم الذي ارتضوه بملء حريتهم . وذلك لتقرير حرية العقيدة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » .

وفي مثل هذه الحالة يبدو واضحاً معنى القتال لتكون كلمة الله هي العليا . فكلمة الله هنا تعني كذلك حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وكل قوة مادية تقوم في وجه هاتين الحريّتين أو إحداهما هي قوة معتدية مضادة لكلمة الله الذي كرم الإنسان، وجعله على نفسه بصيرة ، وجعل عقله هو الحكم ، وإرادته هي مناط التكليف ؛ واعتبر الوقوف بالقوة في وجه الدعوة ، او استخدام القوة للإكراه على العقيدة ، معطلاً لكلمة الله . فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

وفي هذا السبيل كانت الحروب والفتوح الإسلامية في عهدها الأول ، الذي نشر الإسلام وقرره في مواطنه الرئيسية في داخل الجزيرة او خارجها . وقد سبقت الدعوة الى الإسلام تلك الحروب والفتوح جميعاً ، ولم تتقرر الحرب إلاّ في حالة من حالتين : الوقوف بالقوة المادية في وجه الدعوة السلمية ، او الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفراداً او جماعات .

وإن كان هذا لا ينفي أن بعض من خرجوا في هذه الفتوح كانت الغنائم والأسلاب والفيء حافزاً من حوافزهم ، ولكن العبرة في هذه الحالة ليست بدوافع بعض الأفراد ، إنما العبرة بأهداف القيادة . فأنا لا أحاسب دولة دخلت الحرب بطمع أفراد من جيوشها في مغانم وأسلاب ، او مغامرات ومتاع ، إنما أحاسبها على الفكرة التي من أجلها دخلت الحرب ، والهدف

المرسوم من ورائها .

وما من شك أن القيادة الإسلامية في فتوحها الأولى على وجه التحديد ، وفي كثير من فتوحاتها المتأخرة كذلك ، ما كانت تهدف إلى أكثر من أن تكون كلمة الله هي العليا ؛ وأن يكون الإسلام هو دين البشرية كافة ؛ لا عن طريق الإكراه ، ولكن عن طريق الدعوة . وضماناً لحرية الدعوة ، ولحرية العقيدة ، ساقت الجيوش وخاضت المعارك ، وفتحت البلاد بعد أن قدمت الدعوة بين يديها،وأعلنت أنها الغاية الأولى والأخيرة.

ومن ثم تتهاوى جميع الأباطيل والمفتريات ، التي تقولها الغربيون على الفتوحات الاسلامية : طبيعتها وبواعثها ، والتي نشأ بعضها عن التعصب الديني ضد الاسلام والمسلمين ؛ ونشأ البعض الآخر عن سوء التفسير ، بسبب قياس المؤرخين الغربيين لفتوحات الاسلام على فتوحاتهم هم ، وقياس بواعث الفتوحات الاسلامية على الفتوحات الامبراطورية الاستعمارية عندهم في القديم والحديث !

وثمة مفهوم ثالث لجعل كلمة الله هي العليا ، مشتق من المفهومين السابقين ومكمّل لهما :

إن الاسلام عقيدة وجدانية تنبثق منها شريعة قانونية ، ويقوم عليها نظام اجتماعي : نظام متميز عن سائر النظم الاجتماعية التي عرفتها البشرية ، ذو مقومات خاصة به ، قد تشترك معه في بعضها بعض النظم الأخرى ، ولكنه في مجموعه

يبدو متميزاً عن سائر النظم بكل تأكيد .

من هـــذه الخصائص أنـه نظام عالمي مبرّأ من العصبية العنصرية ومن التعصب الديني . ومن ثم فهو يسمح لكل إنسان أن ينضم الى موكبه في يسر ، وأن يتمتـع فور انضمامه اليـه بكافة الحقوق التي يتمتع بها أول مسلم من أي جنس ومن أي قبيلة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومنها أنه نظام عادل يضمن لجميع الأفراد حقوقاً متساوية ، ولا يجعل للحاكم او لأسرة او لطبقة أي حق زائد عن حقوق الفرد العـادي . ويضمن العدالة المطلقـة في علاقات الطوائف والأمم ، فلا يقيم وزناً للعداوة والشنآن ، كما أنه لا يقـيم وزناً للصداقة والقربى : « ولا يجرِمنـكم شنآن قوم على ألاّ تعدِلوا . إعدلوا هو أقرب للتقوى » ، « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وحتى ما يسمونه في العصر الحديث باسم « مصلحة الدولة » فإنه لا يبرر في عرف الاسلام أن تحيد الدولة عن العدل المطلق في معاملتها مع الأفراد او الجماعات او الأمم . فمردُّ الأمر كله الى تحقيق شريعة الاسلام لتكون كلمة الله هي العليا .

ومن ثم يدعو الاسلام أهـــله أن يكونوا أمناء عـلى تحقيق العدل في الارض كلها ، ومنـع الجور ، وردّ الطغيان ، تحقيقاً لـكلمـة الله . فحيثما كان ظـلم وكان بغي ، فالمسلمون منتدبون

لدفعه ورفعه ، دون نظر الى من وقع منه الظلم والبغي ، او الى من وقع عليه الظلم والبغي ، في أية صورة ، وتحت أي عنوان ، سواء أكان ظلم فرد لفرد ، أم ظلم فرد لجماعة ، أم ظلم جماعة لفرد ، أم ظلم جماعة لجماعة . كله سواء ، لأن الناس كلهم سواء :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحبُّ المقسطين » .

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربَّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

ومن رفع الظلم وتحقيق العدل ، كل ما يتعلق بتحقيق العدالة الاجتماعية . والاسلام فوق أنه يعدُّ العدالة الاجتماعية في أدق صورها شريعة من شرائعه ، وتكليفاً من تكاليفه ؛ يعدّها في الوقت نفسه عبادة من عباداته ينهض بها الفرد المسلم ؛ وتنهض بها الدولة المسلمة ، ابتغاءً لثواب الله وتجنباً لعقابه ، ومن ثم يربطها بالدين فوق كفالتها بالقانون ؛ ويفرض القتال لتحقيقها اذا لم تكن ثمة وسيلة أخرى سوى القتال .

والنتيجة التي تخلص من هذه المقدمات كلها ، أن الحروب الاسلامية والفتوح ملحوظ فيها أن تحقق الى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة العدالة المطلقة لجميع الناس ، فإذا هي لم

تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك ، لم تكن حرباً إسلامية ولا فتحاً إسلامياً . ولم تزد ثمرتها على ضم رقعة من الارض الى العَلَم الاسلامي . وزيادة رقعة الارض لم تكن يوماً ما ذات قيمة في حساب الاسلام . إنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذي يقوم على الشريعة الاسلامية المنبثقة من العقيدة الاسلامية . وهذا هو الذي كان يضيف الى الاسلام قلوباً وشعوباً. وهذه هي غاية الفتح الاسلامي لا الارض ، ولا الفي ، ولا الغنيمة ، ولا الغلبة على البلاد والعباد .

جاء في كتاب «الدعوة الى الإسلام» تأليف. ت. و. أرنولد» وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه في ص ٥٣ وما بعدها :

« وقد استطاع ميشيل الأكبر بطريق انطاكية اليعقوبي أن يحبذ – فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر – ما كتبه إخوانه في الدين ، وأن يرى إصبع الله في الفتوح العربية ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الاسلامي خمسة قرون . وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل :

(وهذا هو السبب في أن إله الانتقام – الذي تفرد بالقوة والجبروت ، والذي يديل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضيع – لما رأى شرور الروم الذين لجأوا الى القوة ، فنهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء اسماعيل من بلاد الجنوب لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفي

الحق إننا اذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، واعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص لكل طائفة الكنائس التي في حوزتها (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حرّان) . ومع ذلك فلم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم،وحنقهم العنيف ضدنا،وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام).

« ولما بلغ الجيش الاسلامي وادي الاردن ، وعسكر أبو عبيدة في فحل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون : (يا معشر المسلمين . أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا . أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا) .

وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم .

لقد كان الفتح الاسلامي فتحاً فريداً في تاريخ البشرية كلها ، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيراً ، انه لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها ، إنما كان فتحاً لقلوب ساكني الارض ، وغرس بذرة العدل والتسامح والمساواة والاخاء فيها .

وإن أي انسان مخلص للإنسانية ، يعرف طبيعة الفتح

الاسلامي ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الاسلام الأول قد غمر الارض جميعاً ، وألقى فيها تلك البذرة الطيبة الخيّرة ، وان الرجاء لمعقود — بعون الله — على مد الاسلام الثاني ، الذي أخذت بوادره تظهر في يقظة العالم الاسلامي ، وانبعاث الفكرة الاسلامية أن يغمر الارض ومن عليها .

*

التربية الخلقيّة

كوسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي

– محاضرة في حلقة الدراسات الاجتماعية –

إخواني :

يسرني أن أجد من « حلقة الدراسات الاجتماعية » هـذه اللفتة الى « التربية الخلقية » واحتسابها « وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي » ، وذلك في عصر تقهقرت فيه « القيم الأخلاقية » عن المكان الذي يجب أن تشغله في الحياة الاجتماعية ، تحت تأثير نظريات ومذاهب مختلفة ، تعمل على اغفال الآثار العلمية لتلك القيم ؛ ومن ثم تدعو الى اغفال تلك القيم ذاتها ، ونفيها من الميدان الواقعي للحياة .

ونظراً الى تأثير تلك النظريات والمذاهب ، التي تعمل على إغفال الآثار الايجابية للقيم الأخلاقية في حياة المجتمع ، نظراً الى تأثيرها في الجو الفكري والاجتماعي في هـذا العصر – فإنني أسمح لنفسي ، قبل الدخول مباشرة في الموضوع الذي كُلِّفت دراسته : موضوع التربية الخلقية كوسيلة لتحقيق التكافل

الاجتماعي – أن أنفق بضعة سطور في الكلام عن « القيم الأخلاقية » ذاتها ، وتأثيرها في المجتمع البشري . فيجب أن يكون إيماننا وثيقاً بهذه القيم ، قبل أن نحاول أية محاولة في حقل « التربية الخلقية » ، ذلك أن وظيفة التربية الخلقية هي : محاولة تحقيق قيم أخلاقية معينة ، تصطلح الجماعة على ضرورة تحقيقها ، وتؤمن بجدّيتها وأهميتها . فهذا الايمان اذن يجب ان يسبق تلك المحاولة .

إننا مضطرون اضطراراً الى الاعتقاد بأن الحاسة الاخلاقية ، او الاحساس الخلقي ، فطرة في الانسان ، بغض النظر عن نوع القيم الأخلاقية التي تسود مجتمعاً من المجتمعات ، ولم يقع الا في فترات شاذة في حياة البشرية ، او في نفوس شاذة ، استحسان عام للرذيلة واستهجان عام للفضيلة . إنما كان الاختلاف يقع غالباً حول ما يعد رذيلة وما يعد فضيلة .

ونحن مضطرون اضطراراً كذلك ، الى الاعتقاد بأن العنصر الاخلاقي في حياة الناس ، لم يفرض على الأفراد فرضاً ، لا من المجتمع ، ولا من الدين .. فالحاسة الاخلاقية عميقة في فطرة الإنسان. ووظيفة الدين هي تنظيمها وتوجيهها ، ووضع المقاييس الثابتة لها ، فلا تميل مع الهوى والمنفعة وأغراض الطبيعة ، إنما ترجع دائماً الى معيار ثابت ، لا يتأثر بالأهواء ، أما المجتمع فوظيفته هي حماية الفضائل التي يتفق عليها ، لا فرضها فرضاً ضد ارادة الافراد ، فالأخلاق لا يمكن فرضها من المجتمع ما لم

يكن لها أساس عميق في الفطرة . ذلـك ان المجتمع هو كتلة الأفراد ، مهما قيل في التطورات التي تدخل على عقلية الأفراد ومشاعرهم حينما يتكتلون في جماعة ولا بد ان يكون القانون الذي يحكم حياة الجماعة متسقاً في طبيعته مع القانون الذي يحكم فطرة الفرد ، ليمكن قيام مجتمع من هؤلاء الافراد ، ويمكن قيام مصلحة مشتركة بينهم ، على أساس ما يتواضعون عليه من نظم وتقاليد .

وأخيراً فنحن مضطرون اضطراراً الى نفي فكرة المنفعة كأساس للأخلاق ، اللهم الا اذا اعتبرنا ان مدلول كلمة المنفعة هو المصلحة العليا للإنسانية — وهو ما لا يعنيه أصحاب نظرية المنفعة في عـالم الاخـلاق — وكذلك الى نفي فكرة اللذة .. فالواقع ان العنصر الاخلاقي كثيراً ما يقوم على مقاومة اللذة ، ويكون في هذه الحالة ضرورة لحفظ كيان الفرد — فضلاً عن حفظ كيان الجماعة — الى حد أن مخالفته قد تحطم الفرد ذاته . فهو مفروض إذن لحمايـة الانسان من ذاتـه كذلك ، ولصيانة هـذه الذات ، وهو يقابل ضوابط الغريزة في الحيوان . هـذه الضوابط التي تحدد فترات الاخصاب مثلاً ، فلا يميل الحيوان الى اداء عملية الاخصاب الا في فترة معينة . أما الانسان فتضبطه ضوابط أخرى ، من القانون الاخلاقي ! ولو ترك بغـير ضابط فقد يحطم نفسه ، فضلاً عن تحطيم سواه .

على أية حال ، ننتهي الى اعتبار العنصر الاخلاقي أصيلاً في فطرة الفرد ، الى حد انـه داخل ضمن الوسائل الفطرية لحفظ

الذات . وان وظيفة الدين هي مجرد تنظيم هذا العنصر الفطري، وتوجيهه ووضع المعايير الثابتة له . وان وظيفة المجتمع هي حراسة القوانين الاخلاقية التي تصطلح عليها .. كما ننتهي الى اعتبار « القيم الاخلاقية » ضرورة في حياة المجتمع ، فليس أبأس من مجتمع ، المنفعة القريبة واللذة الشخصية هما محركا الفرد فيه ؛ بدون عاصم من هدف أعلى ، وبدون تطلع الى أفق ثابت .. ان صورة من هذا المجتمع البائس تعيش الآن بيننا ، وتؤدي الى ذلك التفكك الواضح في مجتمعات كثيرة .

. . .

لا بد إذن من قيم أخلاقية في حياة المجتمع ، ولا بد إذن من تربية خلقية تحاول تحقيق هذه القيم .. هذا بصفة عامة ... وهنا نجيء الى موضوعنا الخاص : « التربية الخلقية كوسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي » .

ان التكافل الاجتماعي عمل إيجابي في محيط المجتمع ، لا يتحقق الا أن يسبقه شعور دافع في عالم الضمير ، وسلوك واقع في حياة الجماعة .

والتربية الخلقية هي التي توقظ ذلك الشعور الدافع ، وتحقق هذا السلوك الواقع . حيث لا تكفي القوانين والتشريعات وحدها لإحداث ذلك الأثر . ومن ثم ، فالتربية الخلقية تعد وسيلة ايجابية وواقعية لتحقيق التكافل الاجتماعي ، وليست مجرد تطلع مثالي في آفاق الاحلام !

إن مشاعر كثيرة ، وعادات كثيرة ، يجب أن توقظ وتنمّى وتنظّم في ضمير الفرد وفي سلوكه ، ليقوم التكافل الاجتماعي على أساسها ، بل لينبعث التكافل الاجتماعي منها ، والتربية الخلقية هي المنوطة بتحقيق هذا كله في الحقيقة .

وأحسب أننا لن نخرج عن الموضوع ، حين نجعل الاسلام إمامنا في هذا الميدان ، فلقد حقق الإسلام في فجره الأول مجتمعاً قائماً في أساسه على التكافل الاجتماعي ، مجتمعاً يعد نموذجياً في تاريخ المجتمعات التي اتخذت التكافل أساساً للحياة ، الى حد ان يكفل الأنصار المهاجرين ، ويقاسموهم أموالهم ودورهم ومتاعهم ... ثم قامت نظم المجتمع الإسلامي كلها ، كما قامت تقاليده الشعبية على أساس التكافل الاجتماعي . فنظام الزكاة ، ونظام الميراث ، ونظام الوقف الخيري ، ونظام الجهاد ، ونظام الحرية ، ونظام المعاملات الاقتصادية غير الربوية ، كلها نظم تقوم على أساس التكافل الاجتماعي . وكذلك تقاليد الصدقة والبر والاحسان وحماية الضعيف ، والنجدة والفتوة ، كلها تقاليد تقوم على نفس الأساس . لن نخرج إذن عن الموضوع حين نبحث مسألة اعتماد الإسلام في إقامة مجتمع متكافل على التربية الخلقية ، وحين نجعله إمامنا في هذه التجربة ، التي نجح فيها كل النجاح . فإن ذلك يفيدنا في تحديد حقول هذه التربية ، ومعرفة وسائلها على السواء ، وينير لنا الطريق التي يمكن أن نسلكها اليوم كذلك لتحقيق مثل هذا النجاح .

لقد اعتمد الإسلام في تحقيق ذلك المجتمع المتكافل على تشريعات نظامية معينة ، ولكنه لم يدع هذه التشريعات تعمل وحدها مجردة من الدوافع الشعورية في عالم الضمير . لقد استجاش هذا الضمير ، بالتوجيه تارة وبالقدوة تارة ، وكانت وظيفة التوجيه هي ايقاظ الوجدان في عالم الشعور ، ووظيفة القدوة هي تأصيل العادة في عالم الواقع ... وبهذا وذاك تمت التربية الاخلاقية التي أرادها للأفراد والمجتمعات .

لقد بدأ الإسلام بناء المجتمع في ضمائر الافراد ووجداناتهم ، فهناك في أعماق الروح غرس بذرة الحب ،ونسم نسمة الرحمة... الحب الإنساني الخالص ، والرحمة الإنسانية المبرأة . لقد رد الناس الى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة ، وأيقظ في وجدانهم شعور النسب والقربى ، وذكّرهم أخوتهم في الله، وفي المنشأ والمصير ، حتى اذا رقت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا أقرب الى التعاون ، وأدنى الى الإخاء :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً » .. « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » .

وفي ظل الحب والرحمة دعا الناس الى الايثار ، والى التضحية بما هو عزيز على النفوس في سبيل اسعاد الآخرين . فلا

بد للتكافل من قوم يؤثرون على أنفسهم ، ويضحُّون بالغالي والعزيز عليهم ، فالمجتمع فيه الواجدون والمحرومون ، واذا لم يؤثر الواجدون على أنفسهم ، واذا لم يضحوا بما يملكون لم يقم التكافل ، ولم يتم التعاون .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة جميلة للايثار في نفوس أهل المدينة ، الذين استقبلوا المهاجرين فآوَوْهم وشاركوهم مالهم وديارهم في رحابة صدر وسماحة نفس :

« والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبُّون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم – ولو كان بهم خصاصة – ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » :

وهي صورة للإنسانية العليا في أجمل صورها وأبدعها . وهناك صورة أخرى لا تقل عنها جمالاً ورقة وانعطافاً لجماعة من المؤمنين :

« يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام – على حبّه – مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً » .

ثم قال لهم : إن كل ما ينزلون عنه من مال او جهد لتحقيق التكافل الاجتماعي إنما هو قرض لله لا يضيع ، وان الكفَّ عن بذله تهلكة في الدنيا والآخرة ، فأطمعهم في الثواب ، وحذّرهم

من العقاب ، وهما وسيلتان من وسائل التربية للضمير :

« من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .. « وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تُلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

وحثهم على التكافل الاجتماعي لا في دائرة المال فقط ، بل في كل شأن من شؤون الحياة ، وناط هذا بضمائرهم ، وملأ هذه الضمائر بخشية الله وتقواه . والتقوى في النفس هي أقوى عوامل التربية الشعورية وأعمقها .

قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ،ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

وقال رسول الله ﷺ : كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته . الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » .

ولم يقف الإسلام عند مجرد استجاشة المشاعر الوجدانية — وهو يحاول التربية الخلقية — بل عمد الى تكوين عادات وآداب اجتماعية ، تعاون على التآخي وعلى التعاون والتكافل في محيط الحياة العملية .

ومن هذه الآداب والعادات الاجتماعية التي ربّى الإسلام

المسلمين عليها حسنُ القول ولطف الحديث وإفشاء السلام : « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » .. « ادفع بالتي هي أحسن ،فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم».. « واذا حُيِّيتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها او ردُّوها » .

ومنها احترام الآخرين ، وحسن الظن بهم ،وحفظ غيبتهم ، وتجنب إغتيابهم ، واتقاء الله فيهم : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خيراً منهنّ ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، ان بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه . واتقوا الله ان الله تواب رحيم » .

وهكذا سار الإسلام في تهذيب المشاعر الإنسانية ، وتكوين الآداب والعادات الاجتماعية ، التي يمكن ان يلتقي الناس على أساسها ، وان يتعاونوا في يسر ، ويتكافلوا في طواعية . لأن أسباب هذا التكافل نابعة من ضمائرهم، منبثقة من مشاعرهم ، وليست مفروضة عليهم فرضاً من خارجهم بحكم القانون .

. . .

نحن اليوم نملك ان ننتفع بهذه التجربة العملية ، التي حققها الإسلام يوماً ، وأقام على أساسها مجتمعاً متعاوناً متكافلاً . فما

هي الخطوط الرئيسية في هذه التجربة ، التي يمكن ان نتبعها في التربية الخلقية الاجتماعية ؟

إن الخط الرئيسي في أية محاولة للتربية الخلقية ، ينبغي ان ان يكون هو ربط الضمير الإنساني بأفق أعلى من الذّات المحدودة والمصلحة القريبة . أفق يستعذب التضحية في سبيله ، ويستسهل الصعب في الارتقاء اليه ، فماذا يكون هذا الأفق العالي الجذاب ؟

لقد يرى بعضهم ان يكون هو العزة القومية . ولقد يرى بعضهم ان يكون هو الاخوة الإنسانية .. وكلاهما أفق كريم وضيء ، يمكن ان يرفع مشاعر الفرد عن أفق المنفعة القريبة واللذة الحاضرة ، فيقبل تكاليف التكافل الاجتماعي عن طواعية . أما أنا ؛ فأوثر ان أربط ضمير الفرد بأفق أعلى من هذه الآفاق جميعاً : أفق تنطوي فيه هذه الآفاق جميعاً .. أوثر أن أربطه بالله خالق الأوطان وخالق الإنسان ، أوثر ان يبذل ما يبذل ابتغاء مرضاة الله . ولو لم يشعر به وطن، ولو لم يكرّمه إنسان .. وأوثر ان يكون الحب في الله هو الذي يجمع القلوب، ويشبك الأيدي، ويلفّ السواعد . عندئذ تتحقق الصورة الوضيئة التي رسمها رسول الله — ﷺ — وهو يقول :

« إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا : يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله بينهم على غير أرحام بينهم ، ولا اموال يتعاطونها . فو الله ان

وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » .

إن ارتباط الضمير الانساني بالله ، هو الخط الأول في اي تربية خلقية ناجحة عميقة الجذور . وهذا يقضي ان نتخذ العقيدة الدينية قاعدة أساسية للتربية الفردية أو الاجتماعية في سبيل تكافل اجتماعي . لا يحقق مصلحة اجتماعية فحسب، ولا مصلحة قومية فحسب ، بل كذلك يحقق غاية انسانية أبعد ، تتسم بالرغبة في ارضاء الله وحده والتضحية بالغالي والرخيص ابتغاء وجهه الكريم .

وسنجد الأديان السائدة في البلاد العربية كلها في عوننا — وليس الاسلام وحده — حين نعتزم أن نجعل العقيدة الدينية أساساً للتربية الخلقية ، في سبيل تحقيق تكافل اجتماعي ناجح في هذه الرقعة من الأرض .

وحين يستقيم لنا هذا الخط الأساسي الأول ، حين نربط ضمير الفرد بإلهه ، ونربط سلوكه بتقوى الله ورجائه ، حينئذ سيسهل علينا أن نغرس في هذا الضمير كافة المشاعر التي يقوم عليها التكافل الاجتماعي ، وأن نقود الفرد الى سلوك اجتماعي يؤدي الى تلك الغاية . فاذا جاء التشريع بعد ذلك ليقيم الاساس العملي للتكافل الاجتماعي ، وجد طريقه الى النفس الانسانية مفتوحاً ، وطريقه في الحياة الاجتماعية الواقعية ممهداً .

أما الخطوط الفرعية في محاولة التربية الخلقية فهي كثيرة .

ولكنها كلها ينبغي أن ترجع الى ذلك الخط الاساسي .

إن هذه الخطوط يجب أن تتجه الى تكوين عادات اجتماعية معينة ، عن طريق الايحاء والقدوة والسلوك العملي . فالعادة ضرورية لتثبيت الاتجاه الشعوري ، في بعض الأحيان تكون هي الوسيلة المضمونة الوحيدة لتحقيق هدف التربية الخلقية ... (مثال ذلك تدريب الافراد – سواء في المدرسة او المعسكر أو النادي أو أية تشكيلة جماعية – على العمل المشترك ، بكل ما يتطلبه من رغبة في التعاون ، ومن مشاركة وجدانية ، ومن تسامح ومراعاة لمشاعر الآخرين ، ومن تقبل للرأي المخالف ، ومن تضحية بالظهور الفردي رغبة في إنجاح العمل الجماعي ، ومن تقسيم للعمل وتنظيم لأجزائه ، ونظام في أدائه . . . وكل هذه صفات أو عادات لا تكتسب بمجرد التوجيه النظري ، بل لا بد فيها من المرانة العملية ، حتى يستحيل الشعور الداخلي بها سلوكاً واقعياً في الخارج .

كذلك عادة الاهتمام بالآخرين وأحوالهم وهمومهم ومشكلاتهم . وأنا أسميها عادة ، وإن كانت في أصلها شعوراً . وأقصد بها تنظيم هذا الشعور وتوجيهه وتهذيبه ، وتفريغه في صورة عملية تتخذ شكل العادة الثابتة في حياة الفرد ... فلا ينحرف فيصبح مجرد فضول أو تجسس لتلبية حب الاستطلاع الفطري ، ولا يتبخر في صورة انفعالات خيّرة أو شريرة ، وينتهي ... بل يهذب فيصبح اهتماماً خيّراً بآلام الآخرين

ومشكلاتهم ، ثم يوجه الى التعاون معهم ومعاونتهم ، ثم ينظم فيأخذ هذا التعاون شكلاً جماعياً ينتهي الى التكافل .

وبالمثل تحول مشاعر الإيثار والتضحية التي يوقظها الشعور الديني والتوجيه التربوي ... تحول الى حركات تفرغ فيها هذه المشاعر ، أو بتعبير آخر الى أعمال ذات صفة منظمة ، يؤديها الفرد حتى تستحيل الى ما يشبه العادة .

وهنا أحب أن أنبه الى لفتة دقيقة ... إنني احب ونحن نحول المشاعر الوجدانية الطيبة في حقل التكافل الاجتماعي الى عادات ثابتة ، واستجابات عملية ... احب ان نحافظ على حيوية هذه المشاعر الوجدانية ، وان نوقظها دائماً ، ونجعلها حاضرة مع الاستجابة العملية ... انني انبه إلى هذا بشدة نتيجة لما شاهدته في بعض البلاد الغربية من صيرورة التكافل الاجتماعي عادة عملية ، ولكن على حساب المشاعر الانسانية الرفيعة ! إن المتبرع مثلاً يتبرع للعمل الاجتماعي كما يأكل ويشرب ويقطع طريقه اليومي . ولكنه شيئاً فشيئاً اصبح لا يستشعر آلام من تبرع لهم ولا يحس بالآصرة الانسانية التي تجمعه بهم . إنما هي مجرد عادة وعرف اجتماعي ! اننا في هذه الحالة نكسب العون العملي حقاً ، ولكننا نخسر التعاطف الانساني وهو أجمل وأعلى وأرحم . انني — كما قلت — لا أحب ان تتبخر المشاعر الانسانية في صورة انفعالات ، ثم ينتهي الامر . ولكنني حريص كذلك ، على ان يظل الانسان انساناً ، وان ترتقي مشاعره وترهف ،

كلما أدّى عملاً خيراً . ان عمل الخير يجب أن يظل عنصر تهذيب لفاعله ولا يفقد هذا الطابع ، بجوار ما يحققه من نفع عملي لمن يوجه إليه . وإلا فقد يشطر الخير الذي يمكن أن يحققه .

وأخيراً فلعلي أكون قد كشفت – بوجه إجمالي – عن دور التربية الخلقية في تحقيق التكافل الاجتماعي – بالقدر الذي يسمح به الوقت المخصص لي .

والسلام عليكم ورحمة الله .

★

نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام

لقد تعودنا حين نذكر (التكافل الاجتماعي) ونتحدث عن دور العقيدة الدينية فيه ان تخطر ببالنا كلمات الاحسان والصدقة ، والبر ، وعلى الأكثر كلمة الزكاة .

أريد أن أقرر أن هذه الكلمات ، وما وراءها من مدلولات ، وما تلقيه حولها من صور وظلال ، لا تمثل حقيقة الدور الذي تقوم به عقيدة كالعقيدة الاسلامية في ميدان التكافل الاجتماعي.

إن التكافل الاجتماعي في الاسلام نظام كامل ، نظام بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى هذا النظام. قد تدخل في عناصره مدلولات الاحسان ، والصدقة ، والبر ، والزكاة وما اليها ، ولكنها هي بذاتها لا تدل على حقيقته ، لأن حقيقته أوسع منها جميعاً . ان هذه المدلولات هي بعض وسائل ذلك النظام ، ولكنها ليست ماهيته ؟ لأن الوسيلة غير الماهية !

إن نظام التكافل الاجتماعي في الاسلام ، لا يعني مجرد

المساعدات المالية – أياً كانت صورتها – كما تعني مثلاً كلمات الضمان الاجتماعي أو التأمين الاجتماعي . فالمساعدات المالية هي نوع واحد من المساعدات التي يعنيها التكافل في الاسلام ؛ ثم إنها – هي وغيرها من المساعدات الأخرى – ليست صلب النظام ، إنما هي وسائل لتحقيقه .

والآن نجيء الى بيان حقيقة نظام التكافل الاجتماعي كما عناه الاسلام .

لقد عنى الاسلام بالتكافل الاجتماعي أن يكون نظاماً لتربية روح الفرد وضميره وشخصيته وسلوكه الاجتماعي ، وان يكون نظاماً لتكوين الأسرة وتنظيمها وتكافلها ، وأن يكون نظاماً للعلاقات الاجتماعية بما في ذلك العلاقات التي تربط الفرد بالدولة ، وأن يكون في النهاية نظاماً للمعاملات المالية ، والعلاقات الاقتصادية التي تسود المجتمع الاسلامي .

وهكذا نرى أن مدلولات البر والاحسان والصدقة – وحتى الزكاة – تتضاءل أمام هذا المدلول الشامل للتكافل الاجتماعي كما عناه الاسلام ، وكما طبقه في واقع الحيـــاة في يوم من الأيام . !

لقد بدأ الاسلام ، فجعل التكافل علاقة تربط بين المرء ونفسه ، فجعل الفرد مسؤولاً عن نفسه أمام الله : مسؤولاً عنها أن يزكيها ويطهرها ، وأن يكفّها عن شهواتها ، وأن يقف لها بالمرصاد كلما هفت الى غواية . وقرر أن هذه النفس مستعدة

للفجور والتقوى، وأن على صاحبها أن يختار لها الطريق وعليه تبعة ما يختار لها :

(ونفس وما سوّاها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دسّاها) .

ولقد كلفه أن يمتع نفسه في الحدود التي لا تفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والراحة ، فلا ينهكها ويضعفها : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) .. « إن لبدنك عليك حقا » .

وفي مقابل حرية الاختيار قرر الإسلام فردية التبعة ! فكل إنسان وعمله ، وكل إنسان وما يكسب لنفسه من خير او شر ، ومن حسنة او سيئة : (كل نفس بما كسبت رهينة) ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

وبذلك يقف الإنسان من نفسه موقف الرقيب والكفيل : يهديها إن ضلت ، ويمنحها حقوقها المشروعة . ويحاسبها ان أخطأت ، ويحتمل تبعة إهماله ان أهمل في ردها عن الغواية . وبذلك يقيم الإسلام من كل فرد شخصيتين، تتراقبان وتتلاحظان وتتكافلان فيما بينهما في الخير والشر سواء .

ذلك التكافل بين المرء ونفسه نظام تربوي . يوقظ ضمير الفرد وحساسيته ، كما يوقظ شخصيته وينميها . فالحرية والتبعة هما قوام الشخصية المستقلة . وهو تكافل فردي في ظاهره ،

ولكنه في حقيقته تكافل اجتماعي بالمعنى الواسع الذي يعنيه الإسلام . ذلك أن تربية الفرد على هذا النحو إنما هي إعداد له في ميدان المجتمع . فلهذا التهذيب نتائجه في السلوك الاجتماعي ، وفي التكافل الاجتماعي . لأن الإسلام يوجه الفرد بعد هذه الخطوة - خطوة ايقاظ ضميره وارهاف حساسيته - الى الايثار والتعاون والتكافل مع الجماعة ، فيجده على استعداد طيب للخطوة الثانية بعد اجتيازه للمرحلة الأولى .

• • •

بعد ذلك ينتقل الإسلام بالتكافل الاجتماعي ، من نفس الفرد الى محضن الأسرة ، فيقيم هذا المحضن على أسس وطيدة من التكافل ، يتعادل فيها الغنم والغرم ، وتتناسق فيها الحقوق والواجبات ، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، فاذا أقيم بناؤها على أساس التكافل ، ضمن هذا المجتمع في النهاية بناء وطيد الأركان ، سليماً غير متخلخل ، وخفت الأعباء الاجتماعية على الدولة ، لأن قسطاً كبيراً منها سيتم داخل محيط الأسرة .

هذا التكافل في الأسرة ليس مجرد تكافل اقتصادي ، إنما هو تكافل إنساني كامل : يشمل واجب العناية بالأطفال ، وتنشئتهم واعدادهم للحياة ، جسمياً وعقلياً وروحياً ، وواجب الرعاية للأمهات والآباء عند الكبر والهرم ، الى جانب التكاليف المادية والتوارث المقابل لهذه التكاليف .

ولا مفر من الاعتراف بقيمة الأسرة في بناء المجتمع ، على الرغم من جميع المحاولات التي تتجه اليها بعض النظم المادية للقضاء على الأسرة ، وتكافلها الاجتماعي الخاص – كما تحاول الشيوعية مثلاً – بحجة أنها تنمي أحاسيس الأثرة الذاتية ، وحب التملك ، وتمنع الشيوعية المال ، وشيوعية ملكية الدولة للأفراد ... فالأسرة تقوم على ميول ثابتة في الفطرة البشرية ، يلبيها الإسلام تلبية سليمة ، حين يجعل للأسرة مكانها الرئيسي في نظامه الاجتماعي ، كما أنها هي العش الذي تنشأ في دفئه ، ومن حوله ، مجموعة الآداب والأخلاق الخاصة بالجنس . وهي في صميمها آداب المجتمع الذي ارتفع عن الأباحية والحيوانية .

كذلك هي ضرورة بيولوجية ونفسية ، لا يغني عنها نظام الاختلاط الجنسي الاباحي . فتخصيص امرأة لرجل واحد أصلح بيولوجياً وأفلح لإنجاب الأطفال . أما من الوجهة النفسية فإن مشاعر المودة والرحمة والتعاون تنمو في جو الأسرة خيراً مما تنمو في أي نظام آخر . وتكوين الشخصية يتمُّ في هذا المحيط خيراً مما يتم في أي نظام آخر . وقد اثبتت تجارب محاضن الأطفال كما قالت : انا فرويد ودورثي برلنجهام في كتابهما « أطفال بلا أسر » ان الطفل الذي يتناوب تربيته عدة حاضنات تختل شخصيته وتتفكك ، كما ان الطفل الذي يشاركه في حاضنته أطفال آخرون في مثل سنه لا تنمو في نفسه مشاعر الحب والتعاون .

فالإسلام حينما جعل الأسرة قاعدة نظامه الاجتماعي ، وجعل

التكافل بكل معانيه قانوناً لهذه الأسرة ، كان يضع للتكافل الاجتماعي الأساس الصحيح المتفق مع الفطرة البشرية ، المحقق لأقصى ما فيها من استعداد للخير والكمال .

هذا التكافل الاجتماعي في محيط الأسرة ، ينشأ عنه بجوار الواجبات والتكاليف الأدبية حقوق وواجبات في المال . إذ يقرر الإسلام النفقة للعاجز على القادر في محيط الأسرة ، ويقرر معه نظام التوارث بين الأقرباء ... على خلاف فيهما بين الآراء الفقهية لا يعنينا هنا بيانه ... إنما المهم هو تقرير أصل التكافل العائلي والتعادل بين الغنم والغرم فيه ، تبعاً لمبدأ العدل الذي هو أساس النظام الاجتماعي في الإسلام .

. . .

ثم ننتقل من محضن الأسرة الى محيط الجماعة ، حيث نجد التكافل الاجتماعي يشمل كل العلاقات الاجتماعية ، ولا يقف فقط عند حدود المال .

هنالك تكافل بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعة والفرد ، يرتب تبعات على كل منهما ، كما يرتب حقوقاً تقابل هذه التبعات. والإسلام يبلغ في هذا التكافل حد التوحيد بين المصلحتين ، وحدّ الجزاء والعقاب على تقصير أيّهما في النهوض بتبعاته .

هذا التكافل — كما قلنا — لا يقف عند حدود المال . فهو تكافل في كل علاقات الحياة الأخرى . . هو تكافل في حماية المجتمع من الشر والرذيلة والفاحشة والفساد ، حمايته سواء من

الحاكم او المحكوم ، وعلى كل فرد دور في هذه الحماية : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان » .

وقد فهم بعض المسلمين يوماً من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » .. فهم هذا البعض أنها تجيز لهم السكوت عن رد المنكر وتغييره ، فنبههم الخليفة الأول أبو بكر –رضي الله عنه– الى عدم فهمهم لها قال:

« يا أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية .. وانكم تضعونها على غير موضعها ، واني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان الناس اذا رأوا المنكر ولم يغيّروه أوشك الله ان يعمّهم بعقابه » وهذا هو التفسير الصحيح الذي ينطبق على مرامي الإسلام ، إنما كل ما في الآية هو تقرير التبعة الفردية ، والضلال السلبي – الذي ليس له أثر ايجابي في محيط الجماعة – أمر يخص صاحبه ، وعلى الآخرين ان يحاولوا الهداية ، وان يغيروا المنكر . فإذا لم يهتد الضال ولم يكف فهو وما كسبت يداه ، ولا يجازى على الجرم بعدئذ سواه .

وكل فرد مكلف أن يحسن عمله الخاص ، لأن ثمرة عمله عائدة على الجماعة : « إن الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً ان يتقنه » . ولكل فرد حق العمل على الجماعة – او على الدولة النائبة عن الجماعة – فالتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس نظام احسان ، او صدقة في أصله ، إنما هو نظام إعداد وانتاج تنشأ عنها

الكفاية الذاتية ، أولاً وقبل كل شيء . وقد جاء رجل الى الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل – وهو قادر على العمل – فلم يعطه مالاً ، إنما هيأ له فأساً وكلفه ان يذهب فيحتطب بها ، فيبيع ما احتطب ، فيعيش به ، كما كلفه ان يعود اليه ليرى عمله وكيف حاله .. فهو قد هيأ له أداة العمل ، وهداه اليه ، وبذلك قرر مبدأ حق العمل للقادر ، وحقه على الدولة في تيسير وسيلة العمل وأداته ، تطبيقاً لمبدأ التكافل الاجتماعي بين الفرد والجماعة في صورته الشاملة الكاملة .

وتطبيقاً لهذا المبدأ كذلك ، قرر الإسلام تحريم التعامل بالربا ، فليس تحريم الربا بمعزل عن نظام التكافل الاجتماعي .

ان الإسلام يقرر مبدأ الملكية الفردية للمال الذي كسبه صاحبه بطريقة مشروعة . ولكنه يقرر بجانب مبدأ الملكية الفردية مبدأ آخر . يقرر أن هذا المال مال الله ، استخلف الجماعة فيه : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » وأن الملكية لا تقوم إلا بعقد تمليك من الشارع حقيقة او حكماً ، باعتبار أنه نائب عن الجماعة المستخلفة في مال الله .

وتبعاً لهذين المبدأين يحرّم الإسلام الربا . فالربا كسب غير مشروع ، لأن المال لا يجوز أن يلد المال ، إنما العمل هو الذي يستوجب الجزاء . وكذلك لأن المال مال الجماعة ، ومالكه إنما هو موظف فيه لاستثماره . فإذا احتاج غيره من أفراد الجماعة

الى شيء يستثمرونه او يقضون به حاجاتهم الضرورية فيجب ان يعطى لهم قرضاً بلا فائدة ، تحقيقاً لنظام التكافل الاجتماعي .

ولن يقوم تكافل اجتماعي على وجه صحيح ونظام الفوائد الربوية قائم ، والمال محبوس في أيدي أصحابه ، لا يدعون الآخرين ينتفعون به في العمل والاستغلال ، إلا اذا أدوا عنه فائدة ربوية لا تنهض على أساس من العدل — بله التكافل — واطلاق المال ليعمل فيه كل قادر ؛ وليستثمره أفراد الجماعة بالعمل ؛ هو الاساس الذي يضعه الإسلام أول ما يضع لتحقيق التكافل الاجتماعي .

. . .

وأخيراً نجيء الى الزكاة ؛ ونجيء الى الصدقات . وقد تعمدت ان أؤخرها لأشير الى أنها ليست إلا قاعدة واحدة من قواعد كثيرة ، يقوم عليها نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام ؛ على حين يظن الكثيرون أنها القاعدة الوحيدة لذلك النظام .

انها قاعدة تجيء بعد قواعد العمل وتيسيره لكل قادر عليه ، والقرض الحسن وتمكين كل من يريد المال ليعمل فيه او ليأكل منه بلا فائدة ؛ والتكافل بين أفراد الاسرة ، والتضامن في الغرم والتبعة الفردية والجماعية تجاه المجتمع — لا من نواحي المال وحده بل في كل نواحي الحياة — تجيء بعد أن تكون فكرة التكافل الاجتماعي قد شملت تربية الفرد وتربية الجماعة ؛ وتنظيم الحياة الاجتماعية على أسس فاضلة يكفلها الفرد وتكفلها

الجماعة ، « ويحميها الجميع من كل اعتـداء ، سواء جـاء هـذا الاعتداء من الافراد المحكومين او السلطات الحاكمة » .

أخيراً تجيء الزكاة ؛ فإذا هي حق مفروض في المال ، حق مقدّر معـلوم ، غـير متروك لوجدانات الافراد ولا لتقديرهم . حق تأخذه الدولة وتقاتل عليه ، لا إحساناً فردياً من يد الى يد ، ومن متفضل الى متفضل عليه .

وبذلك تنتفي من الزكاة تلك الصورة الذليلة التي يتصورها البعض لها : صورة يد ممدودة بالسؤال ويد متفضلة تنفحها بشيء من المال ، انها صورة مزوّرة مفتعلة لفريضة الزكاة ، يتخيلها من لا يعرفون حقيقـة هـذا النظام . او ممن يعرفون ، ولكنهم يحاولون تشويه الحقائق لغرض معلوم .

فأما الصدقات ، فلأن فيهـا مظنة الإحسان من مخلوق الى مخلوق ، فإننا نرى الإسلام ينفي هـذه المظنة بشدة ، ويقرر دائماً أنها قرض لله يجزي عليه الله ، وليس تفضلاً من إنسان على إنسان ، وأن الرابح في هذه العملية هو من ينفق المال . وإنه إنما يقدم لنفسه ما أنفق بلا منٍّ ولا إفضال :

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم . وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله . وما تنفقوا من خير يوفَّ اليكم وأنتم لا تُظلمون» .

« من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

ومن ثم فالمعطي حين يعطي لا يتفضل على المحتاج ، إنما هو

يقدم قرضاً لله . والمحتاج الذي أخذ إنما كان واسطة لمن أعطى لينال أجره من الله .

هـذه هي الصورة الحقيقية لنظـــام التكافل الاجتماعي في الإسلام ، عرضته عليكم في إيجاز ؛ لنعلم أنـــه نظام تربية للفرد وللجماعة ، ونظام تمكين للأسرة وحماية ، ونظام للمجتمع يحدد علاقات أفراده وحكوماته . وأخيراً فهو نظام اقتصادي يحدد العلاقات الاقتصادية في ميادين كثيرة . ويجعل العمل والانتاج وسيلته الأولى . ولو تتبعناه في بقيـة المعاملات كما تتبعناه في موضوع العمل والربا لوجدناه يشمل جميع العلاقات الاقتصادية .

ومن ثم فهو نظام حياة شامل ، لا نظام إحسان وصدقة وبر فقط كما يتبادر كثيراً الى الأذهان . ولقد حقق الإسلام بهـذا النظام مجتمعاً متكافلاً لم تعرفه البشرية من قبل ، ومـــا تزال تتطلع الى تحقيق مثله حتى الآن .

★

كيف ندعو الناس الى الإسلام

الاسلام عقيدة الضمير ، ينبثق منها سلوك في المجتمع، ويقوم عليها نظام للحياة . نظام كامل يتناول نشاط الفرد في حياته العائلية ، وحياته الاجتماعية ، وحياته الدولية . ويحكم على علاقاته المتنوعة في تلك الميادين كلها ، ويضع الشرائع التي تنظم هذه العلاقات .

لذلك يستحيل الفصل في الحياة الاسلامية بين العقيدة الكامنة في ضمير الفرد ، والشريعة التي تحكم حياته .. إن هذه الشريعة لا تقوم إلا على أساس من تلك العقيدة . كما أن العقيدة حين توجد في الضمير فإنها تحاول أن تظهر في واقع الحياة في صورة شريعة ، ولا انفصام بين هذه وتلك في طبيعة الاسلام .. هذه الحقيقة كفيلة بأن ترسم لنا طريقنا في الدعوة الى الاسلام ، كما أنها قد رسمت من قبل خط سير الدعوة الاسلامية في واقعها التاريخي .

لقد بدأ محمد رسول الله ﷺ داعياً الى الاسلام ، فما أن استمع بعض الناس إليه ، حتى أتم دعوته مشرعاً ومنظماً

وحاكماً . إنه – ﷺ – لم يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، لأن الاسلام يعتبر كل شيء لله . ولا يعرف قيصر إلا منفذاً لشريعة الله ، منظماً للحياة بقانون الله .

هذا الواقع التاريخي الى جانب تلك الحقيقة الواضحة في طبيعة الاسلام ؛ كلاهما يرسم لنا اليوم طريقنا في الدعوة الى الاسلام . ان هذا الدين لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله : أن نسعى في تكوين الفرد المسلم ، حتى إذا كان ، انبعث هو انبعاثاً ذاتياً الى تحقيق نظام الاسلام . غير أن خطواتنا اليوم في طريق الدعوة قد تحتاج الى شيء من التعديل ، يناسب طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، والملابسات التي تحيط الآن بالحياة .

عندما بدأ الرسول الكريم دعوته ، كان ينبغي أولاً تحرير الروح البشرية من العبودية لغير الله من الأرباب المتفرقة ، من الأوهام المخيمة ، ومن الشهوات المذلة .. ولم يكن بدٌ من هذا التحرير قبل كل شيء لإنقاذ الروح الإنسانية وتطهيرها ، وإعدادها لتكاليف الحياة الرفيعة التي يتطلبها الإسلام .

والعبودية لغير الله من الأرباب المتفرقة ؛ سواء هي العبودية للأوهام والخرافات والأساطير ، والعبودية للشهوات والنزوات الهابطة . كلها تنفق الطاقة البشرية في غير ما يليق بالإنسان ؛ وكلها تصرفه عن التطلع للبناء والتعمير والإنشاء ؛ وكلها تصدُّه عن النهوض بتكاليف الحياة الكريمة ، التي أرادها الله لبني الإنسان .

وكانت هذه هي مهمة الدعوة الاولى ، على عهد الرسول ﷺ وهذه كذلك ينبغي أن تكون مهمة الدعوة اليوم ؛ لا عن طريق الكلمة وحدها ، ولكن عن طريق القدوة كذلك . فنحن لا نملك أن ندعو الناس الى أمر ، لا تكون حياتنا الشخصية ترجمة حية له . ولا قيمة لدعوة لا يكون دعاتها هم أنفسهم برهاناً مؤيداً لها .

وليس هنالك إلا اختلاف ظاهري بين أوضاعنا الحاضرة ، والأوضاع التي كانت مع عهد الرسول من هذه الوجهة ، وإن خُيّل الى البعض ان الدعوة الى تحرير البشر من عبودية الأرباب المتفرقة لا موضع لها اليوم ولا ضرورة . كلا ! فإن عبادة الأرباب المتفرقة اليوم ، لا تنقص عن عبادة الارباب المتفرقة في الجاهلية . كل ما تغير هو نوع الأرباب ، لا عبادة الأرباب ! أما عبادة الشهوات ، وعبادة الخرافات ، فهما هما على حالهما بغير استثناء !

أما التعديل الذي نحتاج اليه في خطواتنا اليوم ؛ فهو ألا نبدأ بتكوين الفرد المسلم من الناحية الاعتقادية والسلوكية فحسب ، بل أن نضم الى هذا — وفي ذات الوقت — عرض برامج اجتماعية للحياة ، قائمة على أصول الفكرة الاسلامية ، ومستمدة من الشريعة الإسلامية . وألا ننظر بهذه البرامج حتى يتم تكوين الأفراد المسلمين ، وألا نرسم هذه البرامج جزءاً جزءاً ويوماً بعد يوم ، كما حدث في أيام الدعوة الاولى .

هذا هو التعديل الوحيد في الخطة ، الذي تقتضيه طبيعة الملابسات المحيطة اليوم بالدعوة ، وتقتضيه التغيرات التي طرأت في العصر الجديد .

عندما بدأ الرسول الكريم دعوته ، لم تكن في الجزيرة العربية حكومة مستقرة ، ونظم ثابتة ، وأجهزة اجتماعية معينة . كذلك لم تكن في العالم كله نظريات مقررة للحكم والاجتماع والاقتصاد ، في وضوح النظم والنظريات التي تعاصرنا اليوم. فاستطاع الاسلام أولاً أن يقيم نظامه الاجتماعي لبنة لبنة، وأن ينشىء نظرياته في الحياة واحدة واحدة ، بحسب نمو الهيئة الاجتماعية التي يتولى انشاءها ، وأن يواجه في النهاية بنظامه بعد اكتماله سائر النظم التي كان يعرفها العالم فيدحضها ويغلبها . لا بقوة السلاح كما يحلو لبعضهم أن يتصور ، ولكن بقوة الفكرة التي يحملها . والتي لم تكن تقاس اليها تلك الأفكار التي كان العالم كله يعرفها . لقد كانت وثبة تحريرية لم تعرف البشرية لها نظيراً . وما تزال هذه الوثبة الى اليوم سابقة لخطوات البشرية . وهذا ما يجب علينا أن نثبته للناس في صورة مناسبة للعقلية المعاصرة .

إن العالم اليوم تحكمه نظريات اجتماعية مفصلة . فإذا نحن دعونا الناس الى الإسلام فيجب أن نقدم لهم نظرية الإسلام الاجتماعية مفصلة كذلك . نعم ؛ إن النظرية وحدها لا تكفي لإصلاح الحياة ورفعها ما لم نكون الفرد المسلم ، الذي يؤمن

بهذه النظرية ، ويحسن القيام عليها ، وتحقيقها في واقع الحياة .
ولكن تكوين الفرد المسلم اليوم ؛ يحتاج الى أن تكون لديه فكرة مفصلة عن نظرية الإسلام الاجتماعية ، لأنه بدون عرض هذه النظرية كاملة مطبقة على واقع الحياة الحاضرة ، لا يتم الوجدان الديني ، كما لن يتم الوعي الانساني .

إن الذين ندعوهم الى الإسلام ، يجدون نظماً أُخرى تحكم الحياة ، ولا تسمح لهم بأن يكون سلوكهم الاسلامي كاملاً . لأن قواعد الحياة الحاضرة لا تقوم على أسس اسلامية. ومن ثَمّ يصطدم وجدانهم الديني بواقع الحياة العملية ، وهـذا خير لأنه بدء العمل لتغيير هذا الدافع ، حتى يصبح مطابقاً للصورة التي يرسمها الإسلام للحياة . وإذن ؛ فهذه الصورة يجب أن تكون معروفـة ومعروضة ومشروعة ، كي يسعى الأفراد المسلمون لتحقيقها على بيّنة وعلى بصيرة .

لهذا لم يعد يكفي اليوم أن ندعو الناس دعوة مجملة الى الإسلام ، او الى القرآن ، او الى حـكم الله ، او الى الشريعة الإسلامية او الى نظام الحكم الإسلامي ، او الى النظام الاجتماعي الإسلامي .. الى آخر تلك القضايا الكلّية ، التي ليس لها مدلول تفصيلي واضح في الأذهان .

يجب أن تكون هناك محاضن لتربية الافراد تربية إسلامية . هذا هو الاساس . وفي هذه المحاضن ؛ يجب ان يعرفوا بشيء من التفضيل : مـا هي صورة الحياة الإسلامية الكاملة ، التي ينبغي أن يحاولوا تحقيقها ، والتي يدفعهم اليها وجدانهم الديني . وهذه

الصورة ينبغي كذلك أن تكون معروفة للناس ، في صورة نظريات اجتماعية مفصّلة ، تتناول أوضاع الحياة كلها ، وعلاقات الأفراد والجماعات فيها ، والأسس التي تقوم عليها الحياة العامة .

إن هذه ليست خطوة سابقة لأوانها ، وليس أوانها هو قيام الحكومة الإسلامية ، فإن الحكومة الإسلامية لا تقوم إلا إذا اقتنع الناس أو غالبيتهم بالصورة التي يرسمها الإسلام للحياة ، وعرفوا كيف تكون حياتهم وعلاقاتهم وحقوقهم وواجباتهم ، وتكاليفهم كلها ، لو قامت حياة إسلامية . ولا يكفي أبداً أن ندعوهم اليوم الى الإسلام في اختصار وإجمال ، كما كان يدعوهم الرسول ﷺ . ففي ذلك الزمان لم تكن هنالك نظريات اجتماعية مفصلة تقابل الدعوة الإسلامية . ومادامت للإسلام نظريات أكثر تقدماً من كل ما عرفته البشرية اليوم ، فلماذا لا نعرض للناس هذه النظريات ، مطبقةً على الحياة الحاضرة بكل علاقاتها وملابساتها وحاجاتها ، حين ندعو الناس الى الإسلام ؟

★

نحن ندعو الى عالم أفضل

الذين يفزعون حين ندعو الى استئناف حياه إسلامية ، وإلى إقامة مجتمع اسلامي ، ويتخوفون أن يكون في هذا الاتجاه ما يجور على طائفة ، أو يوقع الاضطرابات في علاقة ..

هؤلاء ؛ إنما يقيمون فزعهم وتخوفهم على غير أساس ، ويستمدونها من الجهل بحقيقة الحياة الاسلامية ، وطبيعة المجتمع الاسلامي ...

إننا ندعو الى عالم أفضل ، حين ندعو الى استئناف حياة اسلامية ، والى إقامة مجتمع اسلامي . وإننا ندعو الى عدالة اجتماعية أكمل من كل تصور للعدالة الاجتماعية ، في أي نظام آخر عرفته البشرية . كما ندعو الى تنسيق أجمل لطبقات الأمة وطوائفها وأفرادها جميعاً .

إن العالم الآن يعاني حيرة فكرية واجتماعية ، ويعاني اضطراباً في نظمه وأوضاعه ، ويعاني قلقاً لا اطمئنان فيه على نظام للحكم أو نظام للحياة ، ويجد الحانقون على الأوضاع القائمة ، في كثير من بلاد العالم الفرصة السانحة للهدم : هدم النظم

السياسية ، والنظم الاجتماعية . لأن هذه النظم أصبحت مزعزعة وعلى وشك الانهيار ، حتى في البلاد التي تظن أن نظمها ثابتة ، وأنها تملك من القوى المادية ما تدافع به عن هذه النظم .

ولكن النظم لا تحميها المدافع والدبابات والقنابل الذرية والجيوش والبوليس ، وإن النظم تعيش لأنها تلبي حاجة طبيعية في حياة المجتمع ، وحاجة شعورية في ضمائر الناس . فأما حين تفقد هذين السندين ؛ فإن قوة الحديد والنار لن تكتب لها الحياة ، وعبر الحياة كلها تنطق بهذه الحقيقة ، التي لم تكذب على مدى التاريخ .

فنحن حين ندعو الى استئناف حياة اسلامية ، والى اقامة مجتمع اسلامي ، إنما نريد أن نتقي الهزات الاجتماعية المدمرة ، وأن نقيم حياتنا كذلك على أرض صلبة ، وعلى أسس أعمق من الأسس المزعزعة ، التي لا تستند الى عقيدة ، ولا ترتكز الى فكرة ... وفي الوقت ذاته نطلب لنا ، ولكل من يهتدي بهدينا ، حياة أفضل ، في عالم أفضل ...

إن النظام الاجتماعي الإسلامي ، هو النظام الوحيد في العالم اليوم ، الذي يقوم على أساس فكرة « العالمية » بمعناها الصحيح . لأنه النظام الوحيد ، الذي يسمح بأن تعيش في ظله جميع الأجناس ، وجميع اللغات ، وجميع العقائد ، في سلام ... وذلك الى جانب تحقيق العدالة المطلقة ، بين جميع الأجناس ، وجميع اللغات ، وجميع العقائد .

والماركسية تدّعي أنها تهدف الى نظام عالمي . ولكن أي نظام عالمي لا يمكن أن يقوم بلا حرية في العقيدة . وبلاد الستار الحديدي كلها تحرّم قيام عقيدة فيها غير العقيدة المادية . ومن لا يعتنقون هذه العقيدة لا يستطيعون مزاولة نشاطهم في الاتحاد السوفييتي او سواه ، ذلك اذا استطاعوا مجرد الحياة !

إننا ندعو الى نظام ، تستطيع جميع العقائد الدينية أن تعيش في ظله بحرية وعلى قدم المساواة ، ويتحتم فيه على الدولة وعلى جماعة المسلمين ، القيام بحماية حرية العقيدة ، وحرية العبادة للجميع ، وأن يلجأ غير المسلمين في أحوالهم الشخصية الى دياناتهم كذلك ؛ وإن يكون لجميع المواطنين فيه حقوق وتبعات متساوية ، بدون تميز ... وأن يرتكز هذا كله ؛ على عقيدة في الضمير ، لا على مجرد التشريعات والنصوص ؛ التي لا تكفي وحدها للتنفيذ السليم .

إننا ندعو الى نظام ، يملك جميع أجناس العالم ، من سود وبيض وحمر وصفر أن تعيش في ظله بحرية وعلى قدم المساواة ، بلا تفريق بين العناصر والألوان واللغات . لأن الآصرة الانسانية تجمعهم ، بلا تميز عنصري ولا محاباة فيه .

إننا ندعو الى نظام ؛ الحاكمية فيه لله وحده ، لا لفرد من البشر ولا لطبقة ولا لجماعة . وبذلك تتحقق فيه المساواة الحقيقية . ولا يكون لحاكم فيه حقوق زائدة على حقوق الفرد العادي من الشعب . ولا تكون هناك شخصية أو شخصيات

مقدسة فوق مستوى القانون . ولا تكون هناك محاكم خاصة للشعب ، ومحاكم خاصة للوزراء أو غير الوزراء . إنما يقف فيه الحاكم الاعلى مع أي فرد من الشعب أمام القضاء بلا تميز ولا استعلاء .

إننا ندعو الى نظام ، يجعل لجميع المواطنين حقاً عاماً في الثروة العامة . لأن الملكية فيه أصلها للجماعة — مستخلفة فيها عن الله — والملكية الفردية عارضة ، وفي حدود الانتفاع ، والفضل للجماعة حين تحتاج الى فضول الأموال .

إننا ندعو الى نظام ؛ يقوم على أساس التكافل الاجتماعي بكل صوره ومعانيه ، فلا يجوع فيه فرد أو يظمأ ، وفي يد فرد آخر فضلة زائدة من ماله ... ثم يعمّمهم التكافل ويوسّع دائرته . فاذا الجماعة مسؤولة عن كل فرد فيها : في اعداده للعمل ، وعن تهيئة العمل له وعن رعايته في أثناء العمل ... ثم عن كفالته اذا احتاج بعد ذلك ، أو تعطل أو عجز لسبب من الأسباب . لا تفرّق في هذا التكافل بين عقيدة وعقيدة ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين طبقة وطبقة .

نحن ندعو الى نظام انساني ، يقيم علاقاته الدولية على أساس المسالمة والمودة ، بينه وبين كل من لا يحاربونه ، ولا يحادّونه ، ولا يؤذون معتنقيه ، ولا يفسدون في الأرض ، ولا يظلمون الناس . فهو لا يحارب إلا المعتدين المفسدين الظالمين .

نحن ندعو الى هذا النظام ، فما الذي يخيف فرداً أو طائفة

أو دولة ، من أن يقوم مثل هذا النظام ، في أي بقعة من بقاع الأرض ، وخاصة إذا كان هذا النظام قائماً على اسس أخلاقية وطيدة ، ومشاعر وجدانية عميقة ، تضمن تنفيذ مبادئه ، بدافع من داخل النفس ، لا بمجرد القوة والسلطان .

ان قيام مثل هذا النظام ، في بقعة من الارض ، يعد ضماناً للبشرية كلها ، من الانحدار والتردي والهدم والتخريب ، لأنه يقيم لها منارة في وسط الظلام والأعاصير ، يمكن أن تهتدي بها ، وتفيء الى شاطىء الامن والسلام .

والبشرية اليوم في مفترق الطرق ، وهناك اضطراب في الافكار ، وحيرة في الاتجاهات ، وزعزعة في النظم .. فما الذي يؤذي هذه البشرية – او فريقاً منها – حين يقوم نظام أخلاقي كي يحقق لها العدالة والطمأنينة والحرية والمساواة ؟

انه لا بد للمجتمعات اليوم من عقيدة ، فخواء المجتمعات الغربية من العقيدة يجرفها دولة بعد دولة ، وشعباً بعد شعب الى هاوية المادية .. وهذه المجتمعات الغربية لا تملك ان تدفع عن نفسها هذه الكارثة ، لأنها تعتمد على القوة وحدها في دفع مذهب يصوغ نفسه في شكل عقيدة .. اما نحن فإننا نملك .. إن لدينا فرصة ليست متاحة للغربيين . إننا نملك إقامة نظامنا الاجتماعي على أساس عقيدة أقوى وأشمل وأكمل . فمن الحمق إذن : أن نفرّط في هذه الفرصة ، تقليداً للمجتمعات الغربية ، التي تترنح وفي يدها القوى المادية بكل صنوفها ، ونحن لا نملك إلا القليل

من هذه القوى .

أريد أن أسأل : ما الذي يخيف جماعة أو دولة من هـذا النظام ، الذي يقوم على عقيدة تحميه ، وهو يحمي الجميـع ، ويقدم العدل للجميع ، ويدفع عن نفسه هجمات المـادية ؛ لا بالسلاح ، ولكن بحكم ما فيه من مناعة ، ومن قوة ذاتية ، ومن تفوق في بنائه الفكري والاجتماعي ؟

إنهم يتحدثون عن الفراغ ، الذي يحدثه انسحاب جيوش الاستعمار من الشرق العربي الاسلامي ! ويخشون أن تدهمنـا الشيوعية ! فان كانوا صادقين في هذا فلماذا لا يدعوننـا نسد الفراغ الاجتماعي في كياننا ، باقامة نظام سليم ، وطيد الاركان ، متصل بعقائدنا الثابتة ، وهو في الوقت ذاته عادل حر ، يملك جميـع البشر أن يعيشوا في ظله بسلام ؟

لماذا يقفون في طريق تحقيق هذا النظام بنفوذهم المباشر ، وهذا النظام يقوم في صد تيار الشيوعية عنا مقام مائة فرقة على الأقل ، ومقام عشرات القواعد العسكرية والحصون .. هذه القواعد ؛ التي لم تدفع عنهم في بلادهم زعزعة النظم الاجتماعيـة وتسرب الشيوعية ؟

إنهم يحاربون هذا النظام ؛ لأنه حين يقوم سيطارد الاستعمار كما يطارد الشيوعية . ولن يسمح لأي لون من ألوان الاستعمار تحت أي اسم ، وتحت أي ستار ، أن يعيش في هذا الوادي ، ولا في الوطن الاسلامي كله .

لهذا هم يحاربون هذا النظام العادل الكامل ، الذي يستمتع بحمايته وعدله أتباع ديانته ومخالفوه على السواء .

فلندرك نحن هذه الحقيقة ، إن كان لنا عقل ، وإن كان فينا إدراك . فقد آن أن نرتفع في التقليد على مرتبة الببغاوات والقرود !

خذوا الإسلام جملة ...
أو دعوه

لكل نظام من النظم فلسفته وفكرته العامة عن الحياة ، ولكل نظام مشكلاته التي تنشأ من تطبيقه ، وقضاياه التي تناسب طبيعته وآثاره في عالم الواقع . ولكل نظام كذلك حلوله التي يواجه بها المشكلات والقضايا الناشئة من طبيعته وطريقته .

وليس من المنطق — كما أنه ليس من الانصاف — أن تطلب من نظام معين حلولاً لمشكلات لم ينشئها هو ، وإنما أنشأها نظام آخر ، يختلف في طبيعته وطريقته عن ذلك النظام .

والمنطق المعقول ينادي : بأنّ من أراد أن يستفتي نظاماً معيناً في حل مشكلات الحياة ، فليطبق أولاً هذا النظام في واقع الحياة ، ثم لينظر ان كانت هذه المشكلات ستبرز أو تختفي ، أو تتغير طبيعتها ومقوّماتها . عندئذ فقط ، يمكن استفتاء هذا النظام ، في مشكلاته التي تقع في أثناء تطبيقه .

والاسلام نظام اجتماعي متكامل ، تترابط جوانبه وتتساند ، وهو نظام يختلف في طبيعته ، وفكرته عن الحياة ، ووسائله في

تصريفها . يختلف في هذا كله عن النظم الغربية ، وعن النظم المطبقة اليوم عندنا . يختلف اختلافاً كلياً أصيلاً عن هذه النظم . ومن المؤكد ؛ أنه لم يشترك في خلق المشكلات القائمة في المجتمع اليوم ، إنما نشأت هذه المشكلات من طبيعة النظم المطبقة في المجتمع ، ومن ابعاد الاسلام عن مجال الحياة .

ولكن العجيب بعد هذا ، أن يكثر استفتاء الاسلام في تلك المشكلات ، وان تطلب لها عنده حلول ، وأن يؤخذ رأيه في قضايا لم ينشئها هو ، ولم يشترك في انشائها . العجب أن يستفتى الاسلام ، في بلاد لا تطبق نظام الاسلام ، في قضايا من نوع « المرأة والبرلمان » و « المرأة والعمل » و« المرأة والاختلاط » و« مشكلات الشباب الجنسية » وما اليها . وان يستفتيه في هذا وفي أمثاله ناس لا يرضون للإسلام أن يحكم ، بل انه ليزعجهم أن يتصوروا يوم يجيء حكم الإسلام !

والأعجب من أسئلة هؤلاء أجوبة رجال الدين ، ودخولهم مع هؤلاء السائلين في جدل حول رأي الاسلام وحكم الاسلام ، في مثل هذه الجزئيات ، وفي مثل هذه القضايا ، في دولة لا تحكم بالاسلام ولا تطبق نظام الاسلام .

ما للأسلام اليوم وأن تدخل المرأة البرلمان أو لا تدخل ؟ ماله وأن يختلط الجنسان أو لا يختلطان ، ماله وأن تعمل المرأة أو لا تعمل ، ماله وما لأية مشكلة من مشكلات النظم المطبقة في هذا المجتمع الذي لا يدين للأسلام ، ولا يرضى

حـكم الاسلام ؟

وما بال هذه الجزئيات وأمثالها هي التي يطلب إن تكون وفق نظام الاسلام ، ونظام الاسلام كله مطرود من الحكم ، مطرود من النظام الاجتماعي ، مطرود من قوانين الدولة ، مطرود من حياة الشعب ؟

إن الاسلام كلٌ لا يتجزأ ، فإما أن يؤخذ جملة ، وإما أن يترك جملة . أمّا أن يستفتى الاسلام في صغار الشئون ، وأن يهمل في الاسس العامة التي تقوم عليها الحياة والمجتمع ، فهذا هو الصَّغار الذي لا يجوز لمسلم – فضلاً على عالم دين – أن يقبله للاسلام .

إن جواب أي استفتاء عن مشكلة جزئية من مشكلات المجتمعات التي لا تدين بالإسلام ، ولا تعترف بشريعته أن يقال حكـّموا الاسلام أولاً في الحياة كلها ، ثم اطلبوا بعد ذلك رأيه في مشكلات الحياة التي ينشئها هو ، لا التي أنشأها نظام آخر مناقض للإسلام ...

إن الاسلام يربّي الناس تربية خاصة ، ويحكمهم وفق شريعة خاصة ، وينظم شئونهم على أسس خاصة ، ويخلق مقومات اجتماعية واقتصادية وشعورية خاصة ، فأولاً طبقوا الاسلام جملة: في نظام الحكم ، وفي أسس التشريع ، وفي قواعد التربية . ثم انظروا هل تبقى هذه المشكلات التي تسألون عنها ، أم تزول من نفسها . أمّا قبل هذا فما للإسلام وما لهذه القضايا التي

لا يعرفها المجتمع الاسلامي الصحيح ؟

أوجدوا المجتمع الاسلامي ، الذي تحكمه شريعة الاسلام ومبادىء الاسلام ، وربّوا النساء والرجال تربية اسلامية ، في البيت ، والمدرسة ، والمجتمع ، وأوجدوا ضمانات الحياة التي يكفلها الاسلام للجميع ، وحققوا عدالة الاسلام التي يفرضها للجميع . ثم اسألوا المرأة بعد هذا : أتريد هي أن تدخل البرلمان ، أم أنها لا تجد ضرورة لهذه المحاولة مع تلك الضمانات ؟ واسألوها : هل تريد أن تعمل في الدوائر العامة ؟ إنها لا ترغب في العمل ، لأن مقتضيات حياتها لا تستدعيه . واسألوها : هل تريد أن تختلط بالرجال ، وإن تتزين وتتبرج ، أم أن تربيتها إذن ستعصمها من نزوات الحيوان ، وشهوات الحيوان ، ومشاعرها ستدعوها الى العصمة حياء من الله ؟

لذلك يسأل في بعض الاحيان أُناس : ترى سنقطع أيدي الألوف من السارقين في كل عام تنفيذاً لشريعة الاسلام ؟!

وهؤلاء يرتكبون نفس الغلطة ، والذين يجيبونهم برأي الاسلام الفقهي يرتكبون غلطتين ..

إن هؤلاء الألوف من السارقين في كل عام ليسوا من نتاج المجتمع الاسلامي ، ولا النظام الاسلامي . إنما هم نتاج مجتمع آخر يطرد الاسلام من حياته ، ويطبق نظاماً اجتماعياً آخر لا يعرفه الاسلام . إنهم نتاج مجتمع يسمح بوجود الجائعين والمحتاجين ، دون أن يقدم لمشكلتهم علاجاً : مجتمع لا يضمن

للملايين القوت ، ولا يربي النفس الانسانية ، ولا يربط الحياة كلها بالله ولا بشريعة الإله .

أما المجتمع الاسلامي فهو مجتمع آخر : مجتمع كل فرد فيه مضمون الرزق عاملاً أو متعطلا ، قادراً أو عاجزاً ، صحيحاً أو مريضاً ، ويأخذ ما متوسطه نصف العشر كل عام من رؤوس الأموال لا من أرباحها لبيت المال ، ثم يأخذ بعد ذلك — بلا قيد ولا شرط — من المال كل ما تحتاجه الدولة لحماية المجتمع من الآفات ...

طبقوا هذا النظام أولاً . ثم أنظروا كم محتاجـــاً يبقى بعد هــذا . وكم سارقاً سيقدم عــلى السرقة ، وبطنه مملوء بالطعام ، وقلبه عامر بالإيمان !

كذلك يسألك بعضهم عن « مشكلات الشباب الجنسية » إذا هم اتبعوا تعاليم الإسلام !

وهؤلاء يرون الشباب الذي يعيش في مجتمع غير إسلامي، كل ما فيه يهيج غرائزهم ، وكل ما فيه يثير نزواتهم ، ثم يطلبون رأي الإسلام في مشكلات هذا الشباب !

ان المجتمع الإسلامي لن تكون فيه فتيات كاسيات عاريات، مائلات مميلات، منطلقات في كل مكان، ينشرن الفتنة، ولحساب الشيطان.. المجتمع الإسلامي لن تكون فيه أفــلام قذرة ، ولا أغان مريضة ، كأفلام وأغاني عبد الوهــاب وشركاه.. المجتمــع الإسلامي لن تكون فيه صحافة تنشر الصور العارية، والكلمات

العارية ، والنكت العارية ، وتقوم مقــام المواخير المتنقلة في كل مكان.. المجتمع الإسلامي لن تكون فيه خمور تزين للناس الفجور، وتحرمهم الارادة والتفكير..وأخيراً فالمجتمع الإسلامي سيهيء للشباب زواجاً مبكراً ، لأن بيت المال ملزم ان يعين من يريد الإحصان .

فإذا شئتم رأي الإسلام في مشكلات الشباب الجنسية، فأولاً طبقوا النظام الإسلامي كله ، ثم انظروا بعد ذلك — لا قبله — ان كانت هنالك مشكلات للشباب !

انني اعتبر كل استفتاء للإسلام ، في قضية لم تنشأ من تطبيق النظام الإسلامي ، والإسلام كله مطرود من الحياة ، انني أعتبر كل استفتاء من هــذا النوع سخرية من الإسلام . كما أعتبر الرد على هذا الاستفتاء مشاركة في هذه السخرية من أهل الإفتاء .

والذين يصرخون اليوم ، طالبين منع المرأة من الانتخاب ، باسم الإسلام ، أو منعهــا من العمل باسم الإسلام ، أو اطــالة أكمامها وذيلها باسم الإسلام ! — ليسمحوا لي — مــع تقديري لبواعثهم النبيلة أن أقول لهم : انهم يحيلون الإسلام هزأة وسخرية، لأنهم يحصرون المشكلة كلها في مثل هذه الجزئيات .

ان طاقتهم كلها يجب أن تنصرف الى تطبيق النظام الإسلامي، والشريعة الإسلامية في كل جوانب الحيــاة.. يجب أن يطالبوا بأن يسيطر الإسلام عــلى نظام المجتمع وقوانين الدولة . وللتربية الإسلامية بأن تسيطر عــلى المدرسة والبيت والحياة . يجب أن

يأخذوا الإسلام جملة وأن يدعوه يؤدي عمله في الحياة جملة ، فهذا هو الأليقَ لكرامة الإسلام ، وكرامة دعاة الإسلام .

هذا إذا كانوا جادين في الأمر ، مخلصين في الدعوة .. أما إذا كان الغرض هو الضجيج الذي يلفت النظر ، وهو في ذات الوقت مأمون لا خطر فيه ! فذلك شأن آخر أحب أن أنزّه عنه على الأقل بعض الهيئات والجماعات !

تحت راية الإسلام

نشرت الأحزاب المصرية برامجها التي تستمدهـا من التعاليم المدنية ، ونشر الاخوان المسلمون برنامجهم المستمد من الإسلام . فظهر الفرق واضحاً وشاسعاً ، بين تلك البرامج الهزيلة المدخولة ، وبين هذا البرنامج الضخم المخصص الخالص ، الذي يسبق الموقف ، ويقود الأمة الى الأمام .

لطالما قلنا للنـاس : ان مبادىء الإسلام الضخمة السمحة القوية أكثر تقدمـاً ، من كل ما عرفته البشرية من مبادىء ، وأقدر على العمل من كل أداة مدنية أخرى ، وأكثر مرونة من سائر الدساتير والتعاليم .

لطالما قلنا للناس : ان الرجال الذين يربيهم الاسلام هم أقوم طريقاً ، وأصلب عوداً ، وأقدر على احتمال التبعة ، وأكثر جداً في أخذ الأمور وتصريفها . لأن لهم من ضميرهم عـاصماً ، ومن دينهم سنداً ، ومن قرآنهم هادياً. « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .

والآن تجيء الفرصة الأولى ، لعرض مبـادىء الإسلام الاجتماعية في شيء من التفصيل ، وبرامج الأحزاب التي تريد أن

تدعو بها لأنفسها . فتتجسم تلك الحقائق التي طالما قلناها للناس، فلم يؤمن بهـا الا من شرح الله صدورهم ، ومن لم يجعل عـلى ابصارهم غشاوة .

ان دعاة الإسلام لم يتلوثوا ، فهم يدعون الى تطهير شامـل كامل ، يتناول كل من شارك الملك الراحل ، أو عاونه أو تستر عـلى جرائمه . وذلك حق . فمـا يجوز أن تظل الأيدي الملوثة تعمل بعد الوثبة ، كما كانت تعمل في عهود الظلام . اما الاحزاب المـلوثة الهزيـلة ، فهي تشفق من التطهير ، تشفق من القصاص العادل ، تشفق من النظافة والنور ، تشفق من العدالة الحقة التي تأخذ المجرم أيا كانت مكانته ، وأيا كانت وظيفته ، وأيا كانت ثروته .

ودعاة الإسلام لم تلوث نفوسهم الارستقراطية الكاذبة ، ولا الطبقية المقيتة . فهم يدعون الى المساواة المطلقة التي تختفي فيها اسطورة الحكام الذين هم فوق التبعات ، والتي لا تجعـل للامراء والنبلاء والوزراء محاكم غـير محاكم الشعب ، ولا اجراءات غـير اجراءات الشعب . بل ينادون بأن يقف الجميع أمـام المحـاكم العادية ، وأن تتخذ مـع الجميـع اجراءات موحدة . فهذا هو الإسلام الذي لا يجعل لرئيس الدولة ولا لأحد من أعوانه ، حقاً زائداً في المال ، ولا في القضاء، ولا في أي حق من الحقوق ليس لفرد عادي من أفراد الناس . وبهذا يطالب دعـاة الإسلام باسم الإسلام . أما الاحزاب فلا تجرؤ عـلى مثل هذا التفكير ، لأن

العبودية لا تزال كامنة في نفوس رجالها . وقد تربوا على العبودية والذل اجيالاً بعد اجيال .

ودعاة الإسلام لا يراؤون الناس ، ولا يدورون حول المشكلات. فهم يعلمون ان الملكية الفردية في صورتها التي انتهت اليها في مصر ملكية حرام ، ملكية تجعل ثلث الاراضي الصالحة للزراعة في يد الملك واسرة الملك . وهم لم يأتوا بها من « قولة » موطن جدهم الكبير ، انما نهبوها من أيدي المصريين ، واغتصبوها بوسائل لا يقرها شرع ولا قانون. وان الدوائر والتفاتيش حولت الناس في ظلها الى ارقاء ، وحرمت الفلاحين الفرصة للتملك .. لذلك يجهرون بتحديد الملكية الزراعية . ولا يكتفون بهذا التحديد بل يحددون العلاقة بين المالك والمستأجر ، ويختارون نظام المزارعة وحده لأنه يحقق العدالة ويتفق مع مبادىء الإسلام واحكامه ، فالإيجار النقدي او العيني طالما ظلم المستأجرين ، وأثقل كواهلهم بالديون .

هذا ما يقوله حزب الله . فأين ما يقوله الآخرون ؟ لقد اصابهم الخرس تجاه الملكية الفردية ، لانهم هم أنفسهم في مهب الريح . ولانهم هم أنفسهم مصّاصو دماء ، ولانهم أنفسهم من الاقطاعيين ، الذين تتنهد مصر اليوم لتزيل ثقلهم من فوق صدرها ، وقد جثموا عليه طويلاً حتى اختنقت منها الانفاس .

ودعاة الإسلام ، يطالبون بعد هذا كله بتحديد الدخل ، وتقريب الفوارق بين الحد الأعلى والحد الأدنى في الأجور

والمرتبات ، وضمان حد أدنى للجميع ، يتلخص في مطعم كاف ، وملبس واق ، ومسكن مريح ، وعلاج وتعليم بالمجان . وضمانات اجتماعية ضد المرض ، والعجز ، والشيخوخة ، والبطالة . فان لم تكف الزكاة هذا الضمان أخذت الدولة فضول أموال الأغنياء فردتها على الفقراء . كما يطالبون بإدخال العمال الزراعيين في النقابات ، وتطبيق قوانين العمال عليهم ، واباحة تكوين اتحادات العمال .

أما الأحزاب فلم تنبس ببنت شفة في هذا المجال .. لماذا ؟ لأنه حتى الحزب الذي يسمونه حزب الاغلبية ، والحزب الشعبي هو ذاته الذي ورمت أنوف الكثيرين من شيوخه ونوابه ، عندما أريد اعتبار العمال الزراعيين من العمال ، كيلا يرفع العبيد جباههم في وجه السادة ، وكيلا يصبح الخدم آدميين لهم كرامة الإنسان !

وتتبدى ضخامة برنامج الاخوان المسلمين ، أمام هزل برامج الاحزاب ، حين نتجاوز الميدان الاقتصادي والميدان الاجتماعي الى الميدان الإنساني .. ان دعاة الإسلام لم ينسوا رفع المستوى الاخلاقي للشعب ، ورفع القيم الإنسانية في كل حقل . ذلك أن دعوتهم أوسع وأشمل ، من الاصلاحات الاقتصادية أو الاجتماعية القائمة على الاقتصاد . انهم أسبق وأبعد مدى في الاصلاحات الاجتماعية ، ولكنهم بعد هذا افسح صدراً ، وأشمل وعياً ، لكافة مقومات الإنسان . لأنهم يستلهمون القرآن الذي يقول : « ولقد كرمنا بني آدم » . والكرامة لا تتم للإنسان إلا بأن يحقق إنسانيته

في كل ميدان ، وأن يرتفع بأخلاقه وأشواقه على الحيوان .. لذلك هم يقاومون الشر والفساد والدنس في مكامنها جميعاً ، ويطلبون التطهير ، لا في الميدان السياسي وحده ، ولا في الميدان الدستوري وحده ، ولا في الميدان الاقتصادي وحده . إنما يطلبونه كاملاً شاملاً كذلك ، في نفس الإنسان وفي ضمير الانسان .

وبعد ، فلقد كان الكثيرون يراجعونني – في إبان حملة الهجوم التطهيرية التي قامت بها الصحافة في العام الماضي – حين يرونني اكتب في « الدعوة » مجلة الاخوان المسلمين ، وفي «الاشتراكية» جريدة الاشتراكيين، وفي «اللواء الجديد» جريدة الوطنيين .

وكنت أقول للجميع : إنني إنما أخوض المعركة على صفحات هذه الصحف جميعاً ، تحت راية واحدة ، راية الإسلام .

إن الإسلام يكافح في ميدان العدالة الاجتماعية الذي يكافح فيه الاشتراكيون ، وفي ميدان العدالة الوطنية والسياسية الذي يكافح فيه الوطنيون ، وفي ميدان العدالة الإنسانية الذي يكافح فيه الاخوان المسلمون. وهذه الصحف بالنسبة لي ليست إلا مجالاً للكفاح. ولو وجدت غيرها يكافح لساهمت فيه قدر ما أستطيع!

وتحت هذه الراية الكبرى ، كنت أؤدي دوري المتواضع ، أؤديه بشعور واحد، تظلني راية واحدة، راية الكفاح للعدالة، تتعدد ميادينها، وتتعدد مجالاتها ، ويُظلها في نفسي ظلٌ واحد:

ظـل الإسلام الذي يحتضن كل حركات التحرير ، ويبارك كل ميادين الكفاح ، ويشمل كل دعوة لرفع كرامة الإنسان. ويزيد على الدعوات كلها سعة الأفق ، واتحاد الهدف، وحرارة الإيمان.

فاليوم تبدي الأيام صدق هذا الكلام ، ويتبين الجميع كيف يحتضن الإسلام هذه الأهداف جميعاً: كيف يطلب تطهير الوطن من الطغاة والملوثين، ومن الانتهازيين والوصوليين، ومن المحتلين والمستعمرين . ثم كيف يطلب العدالة الاجتماعية ، والحريـة الحقيقية ، لجميـع المواطنين . ثم كيف يطالب بكرامة الإنسان الأدبية في ذات الأوان .

إن دعوة الإسلام هي دعوة المستقبل. ولو ألهم الله الاحزاب الرشاد ، ولو تطهرت نفوسهم قليـلاً وتفتحت بصائرهم للنور ، لثابوا الى تلك الدعوة، ولانضووا تحت لواء الله . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

طريق واحد

نحن مرغمون ارغاماً على اختيار طريق واحد ، لا طريق لنا سواه في سلوكنا الدولي . والذين يفهمون أننا مخيرون في أن نسلك عدة طرق ، وأن لنا أن نختار واحداً منها ، إنما يخطئون فهم منطق العصر ولغة الواقع وطبائع الأشياء .

ونحن مرغمون أن نختار لنا راية نتكتل تحتها ، منضمين الى مجموعة من الشعوب التي تقف تحت هذه الراية ، ولسنا مخيرين في أن نقف منفردين ، أو ننضم الى كتلة — كما يفهم بعض الداعين الى قومية محلية ضيقة ، أو الى قومية عربية محدودة — فات أوانها ، وأصبحت من مخلفات القرن الماضي .

لقد انتهت « مودة » القومية المحلية ، وانتهت كذلك « مودة » القومية القائمة على الجنس ، ولم يعد لهذه أو تلك مكان إلا في الأذهان الضيقة المحدودة ، المتخلفة عن روح العصر ومنطقه ومقتضياته .

إن العالم ينقسم الى كتلتين واضحتين ، وكتلة ثالثة تتأرجح ، لأنها لم تهتد الى الأساس الطبيعي السليم الذي يجب أن تقوم عليه ،

أو لأنها تعرف هذا الأساس ، ولكنها تتنكبه ، وتتعامى عنه ، وتراه ثم تتجه الى سواه !

والكتلتان الواضحتان هما: الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، فأما الاولى فهي تقوم على أساس مذهبي ، وأما الثانية فهي تقوم على غير أساس إلا أساس الاستعمار ! ولكن كلتا الكتلتين إنما تتنازعان علينا . تتنازعان على هذه الفريسة التي هي نحن . كلتاهما تريد التهامنا وابتلاعنا نحن الضحية ، ويلزم لسهولة ابتلاعنا والتهامنا أن لا نكون كتلة مستقلة ، وإنما أن نظل دويلات صغيرة ، كل دويلة تنتفخ كالهرة ، وتقف تحت راية قومية هزيلة !

فالذين يدعون منا الى قومية عربية صغيرة ، إنما يحاولون فقط تيسير عملية الالتهام والابتلاع على إحدى الكتلتين الشرقية أو الغربية . أما نحن الشعب ، فإن لنا رأياً آخر في الموضوع ! نحن الشعب لا نريد أن نؤكل. لذلك نحن نستنكر هذه الدعوات الضعيفة ، التي يقوم بها مأجورون أو مخدعون لحساب الاستعمار الشرقي أو الغربي .

ونحن نعلم أننا لسنا مخيرين في عدة طرق . إنما هناك طريق واحد لا مفر منه ، وهو أن نكون كتلة مستقلة لا ترتبط بعجلة الشرق ولا بعجلة الغرب ، لأن الشرق والغرب إنما يتصارعان علينا ، ويريدان التهامنا فرادى !

من منا يستطيع أن يجهر بأنه يريد أن نقف الى جانب

إحدى الكتلتين في صراعها علينا ؟!

من منا يستطيع أن يجهر بأنه يريد تقوية إحدى الكتلتين ومنحها النصر ، لكي تندار علينا ؟!

لنأخذهما كتلة كتلة :

هل يجرؤ واحد منا في مصر — أو في أي بلد عربي أو إسلامي على ان ينحاز بنــا الى المعسكر الاستعماري ، الذي نئن تحت وطأته ، والذي يسحقنا تحت أقدامه : في مصر وليبيا وتونس ومراكش والجزائر والصومال وأريتريا والسنغال وفلسطـــين وسورية ولبنان والعراق والأردن واليمن والحجاز والمحميات التسع والملايو [1] . وكلها أرض إسلامية ، وكلها مستغلة لحساب الاستعمار الغربي الآثم ، الذي يتكتل ضدنا ويتساند ويتساعد . وكلما اشتدت مطارق الكفاح الشعبي على إحدى دوله بادرت الدول الأخرى لتسند رفيقتها أمام الضغط الشعبي .

إن انجلترا او فرنسا او إيطاليا او هولندا ، لا تصمد لوقع مطارق التحرير في الوطن الإسلامي وحدها ، وإنما تصمد بمعاونة أمريكا ودولاراتها ، ودباباتها وطياراتها ، وإمداداتها ونفوذها الدولي ،وهذه حقيقة نعرفها — نحن الشعب — مهما تحاول أجهزة أمريكا في الشرق أن تضللنا عنها !

فمن ذا الذي يجرؤ عــلى أن يربطنا بعجــلة هــذه الكتلة

---

(١) كانت الجيوش الاستعمارية تحتل أكثر البلاد الإسلامية عندما كتب هذا المقال .

الاستعمارية ، كائناً من كان، لنقدم لها مئات الألوف من شبابنا ، وقوداً في الحرب التي تريد أن تنتصر فيها ، لتحكم قبضتها الاستعمارية علينا ؟ إن الذي يجرؤ على هذه المحاولة — كائناً من كان — سيلقى جزاءه من هذه الشعوب التي لم تعد تطيق مزيداً من الاستعمار ، ولم يعد يخدعها تبدل أسماء الاستعمار وأشكاله ، ولا تبدل أسماء المستعمرين وأعلامهم ، بعدما نضج وعيها على لهيب الآلام والتضحيات والتجارب .

كلا . لن يستطيع كائن من كان ، أن يربطنا الى عجلة الاستعمار الغربي ، لا بالاقناع ، ولا بالقوة ، ولا بالمال . ومهما كثر المأجورون الذين يخدرون الشعوب ، فهذه الشعوب صاحية ، والويل لمن يظن أنها مستنيمة .

والكتلة الشرقية :

إن بعض المخدرين الذين يريدون أن نتخلص من الاستعمار بأية وسيلة يتجهون الى الكتلة الشرقية .

ولكننا في هذه الرقعة العريضة من الارض — مسلمين ومسيحيين — نرفض هذا الاتجاه بقوة . إننا لا نريد أن نشتري خلاص أرضنا باسترقاق أرواحنا ، لا نريد أن نبيع عقائدنا بهذا الثمن الباهظ ، في حين أننا نملك الخلاص بوسيلة أخرى .

لن يوجد في هذه الأرض مسلم ولا مسيحي ، يقبل أن تحكمنا الشيوعية لتذبح المسلمين والنصارى معاً ، كما تصنع بهم روسيا والصين الشيوعية في التركستان الشرقية والغربية .

إن دعاة الشيوعية في أرضنا الطيبة أقلية ،وسيظلون أقلية ، مهما بذلوا من جهد ، ومهما تلقوا من مساعدات . لأن المذهب الشيوعي مذهب غير طبيعي بالنسبة الينا ، إن تربتنا لا تساعد على إنباته ، لأننا لسنا بحاجة اليه . إن لدينا مذهباً اجتماعياً آخر أكثر منه تقدماً ، وأكثر منه عدالة ، وأكثر منه احتراماً لبشريتنا ، وأقدر على تلبية حاجاتنا وحاجات الإنسانية في هذا العصر من المذهب المادي الذي تقوم عليه الشيوعية . لذلك سيبقى دعاة الشيوعية أقلية ، لأنهم دعاة مذهب غير طبيعي في هـذه البيئـة . مـذهب غريب لا ضرورة له ، والمـذاهب الاجتماعية لا تعيش إلا اذا كانت هناك ضرورة اليها في البيئة .

ذلك فضلاً على أننا – مسلمين ومسيحيين – لا نريد أن نذهب في مذابح التطهير ، التي تقام لأصحاب العقائد الدينية في دول الستار الحديدي ! نحن نريد الحياة لأن لنا فيها عملاً ، ووراءنا فيها أعبـاء إنسانية ! نعم لسنا عشاق الانتحار عـلى مذبح الشيوعية !

وإذن فلا بد لنا أن نكون نحن أنفسنا كتلة .

إننا لا يمكن أن نعيش فرادى – داخل الحدود القومية المحلية الهزيلة ، او حدود القومية العربية الضيقة – وكذلك لا يمكن أن ننضم الى إحدى الكتلتين اللتين تتنازعان علينا ، وتريد كل منها أن تنتصر لكي تلتهمنا . وعندئذ يتحتم الطريق الثالث ، ويتحدد لنا طريق واحد ، لا مفر من أن نسلكه ،

مخلفين وراءنا دعاة القومية المحلية الهزيلة ، ودعاة القومية العربية الضيقة ، ينعمون بخيالات بالقرون الماضية ، و « مودات » العالم في القرنـين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكثيرون هم الذين يتشبثون بالمودات القديمة !

ولكن الكتلة الغربية والكتلة الشرقية على السواء، تكرهان لنا أن نتكتل تحت الراية الطبيعية الوحيدة ، ومعهما أجهزتهما المندسّة في أوساطنا . لذلك نحن نحيد عن الراية الطبيعية ، الراية التي تضم خمسمائة مليون من سكان الوطن الإسلامي الطويل العريض ، نحيد عن هذه الراية لنقف تحت راية مصطنعة : راية الكتلة الآسيوية الإفريقية ، وهي الكتلة التي يتصارع أكبر عضوين فيها – الهند وباكستان – على كشمير ، ولا ينتهيان الى وجهة . ولست أدري كيف يمكن أن تقوم كتلة واحدة أكبر عضوين فيها بينهما خصومة !

إنها كتلة غير طبيعية ، ولكن الكتلتين المعاديتين لنا تدفعاننا اليها ، لكي لا نتوجه الى الكتلة الطبيعية التي تضم شعوباً تجمعها عقيدة واحدة، وتاريخ واحد ، ومصلحة واحدة، وجغرافية واحدة ، واقتصاديات واحدة ، وتتوافر لها جميع مقومات الكتلة الواحدة بدون استثناء . لماذا ؟ لأن قيام هذه الكتلة على أساسها الطبيعي ، يضايق الكتلة الشرقية والكتلة الغربية جميعاً ؟

وما الحجة التي يدفعون بهـا قيام الكتلة الطبيعية في الوطن

الإسلامي ؟

إنها فقط هي وجود أقليات غير إسلامية في ذلك الوطن الإسلامي !

عجباً ! كأن تلك الأقليات نبتت اللحظة ولم تعش أربعة عشر قرناً عيشة كريمة في ظلال ذلك الوطن ، الذي لا يوجد وطن مثله يحرس أقليته ويرعاها . إنما هي الفتنة يريدون إثارتها في ذلك الوطن الآمن ، الذي لا يعرف التعصب الذميم . ليس اليوم فقط ، ولكن في كل تاريخه ، وبخاصة عندما كانت الشريعة الإسلامية وحدها هي التي تحكمه من أقصاه الى أقصاه. ولم تشهد الارض كلها عدلاً للناس جميعاً ، في داخل وطن من الأوطان الإنسانية كما شهدته في الوطن الإسلامي الذي تحكمه الشريعة الإسلامية .

إنها حجة واهية ، لا تقف أمام منطق التاريخ ، وأمام مقتضيات العصر ، وإنه لطريق واحد مكتوب علينا أن نسلكه ، ولا مفر من سلوكه . فمن الخير ألا نتخبط طويلاً ، وأن نتجه الاتجاه المستقيم ، وإلا نضيع الزمن في محاولات فاشلة ، ضد منطق العصر وضد طبائع الأشياء .

. . .

مصر أولاً .. نعم ، ولكن .. !!

أسمح لنفسي أن أستعير هـذا العنوان من مقـال للاستاذ « إحسان » في جريدة المصري بدأه على النحو التالي :

« ما هي سياسة مصر الخارجية ؟

« وما هي أساليب هذه السياسة ؟

« إن المتفق عليه منذ قام العهد الجديد ، أن تكون سياسة مصر الخارجية سياسة مصرية . ليست سياسة عربيـة ، ولا سياسة شرقية ، ولا سياسة تعـبر عن وجهـة نظر إحـدى الكتلتين العالميتين . إنما هي سياسة مصرية خالصة ، أي أن تبحث جميـع المشاكل عـلى ضوء مصلحة مصر وحدها ، وأن تفسر « الشهامة » الدولية تفسيراً جديداً . فإن الحرص على المصلحة الوطنية لا يتعارض مع الشهامة . ولكن ادعاء الشهامة قد يتعارض في أحيان كثيرة مع المصلحة الوطنية ! » .

وإنه ليسرني أن أعلم أنه من المتفق عليه منذ قـام العهـد الجديـد أن تكون سياسة مصر الخارجية سياسة مصريـة ، لا تعبر عن وجهة نظر إحدى الكتلتين العالميتين .

ولكنني أحب أن نتفق على تحديد معنى كلمة « مصرية » !

ولعله يحسن بنا أن نستعين في هذا بموقف السياسة العالمية منا ، وبالخطوط الأساسية التي تعاملنا الكتلة الغربية او الكتلة الشرقية على أساسها . لنتبين إن كانت هذه الخطوط تنظر الينا على أننا « مصر » او على أننا قطاع من جبهة « عربية » او « شرقية » او « إسلامية » ، سواء أردنا ذلك نحن أم لم نرده في سياستنا .

إن معرفة تلك الخطوط أمر ضروري ، فإذا كنا قطاعاً في جبهة ، لا يمكننا الانسلاخ منها ولا التخلي عنها ، فإن خططنا الدفاعية – او الهجومية – يجب أن توضع على أساس القطاع الصغير الذي نشغله منها ، لأن حماية هذا القطاع الصغير تصبح غير مستطاعة اذا انكشفت القطاعات الأخرى . وفي هذه الحالة يكون لكلمة « مصرية » معنى أوسع من المعنى الذي تعطه للنظرة الأولى .

يقول الاستاذ إحسان في مقاله :

« اذا لم تكن لألمانيا مصلحة في دفع هذه التعويضات فلا بد أن هناك ضغطاً كبيراً قد وقع عليها .

« ولا يمكن لدولة أن تضغط على المانيا الى هذا الحد . إلا اذا كانت الولايات المتحدة ..

« إذن فهي الولايات المتحدة التي منحت اسرائيل هذه التعويضات .

« هي الأم الرؤوم التي لا تزال ترعى وحيدها ، وتحقنه بالفيتامينات كلما دب الهزال في أوصاله .

« فهل نلوم المانيا ونعفي أمريكا من المسؤولية ؟

« هل نضرب في البرذعة ونربت على ظهر الحمار ؟

« هنا يجب أن يتحدد اتجاه السياسة المصرية ، وسياسة الدول العربية . فإما أن تتجه هذه السياسة الى تحميل أمريكا مسؤولية هذه التعويضات ، وإلا فلن نصل الى شيء مهما اتخذنا من قرارات خاصة بسياستنا نحو المانيا الغربية » .

وهذا كلام صادق جداً . فأمريكا هي المسؤول الأول عن قيام إسرائيل ، وعن بقائها الى اليوم ، وعن التعويضات الالمانية التي يقوم عليها النزاع . ومن الضروري أن يكون ذلك واضحاً في أذهاننا لنرسم على أساسه سياستنا مع أمريكا .

ولكن هذا ليس موضوعي هنا . إنما المهم أن نعرف الخطوط الأساسية لأمريكا تجاه إسرائيل وتجاهنا نحن في مصر ، لنتبين إن كان في وسعنا أن تكون لنا سياسة « مصرية » بمعناها الضيق تجاه هذه المشكلة او سواها ؟ أم أننا ملزمون إلزاماً بأن تتسع كلمة « مصرية » فتشمل جميع قطاعات الجبهة؟

إن الاستاذ إحسان يقول في مقاله :

« مصر لم تأخذ من أمريكا حتى اليوم إلا مجرد آمال .

« آمال لا تكاد تبدو حتى تتبدد ، لتخلفها آمال أخرى

تتبدد مرة أخرى .

« كنا نأمل أن تقف أمريكا بجانب مصر في قضية الجلاء ، فتبدد الأمل .

« وكنا نأمل أن تقف أمريكا بجانب مصر في قضية تسليح الجيش ، فتبدد الأمل .

« وكنا نأمل أن تقف أمريكا بجانب مصر في حل مشاكلها الاقتصادية والعمرانية ، فتبدد الأمل .

« وكنا نأمل أن تقف أمريكا بجانب مصر في قضية فلسطين ، او على الأقل في قضية اللاجئين ، فتبدد الأمل .

« وبالرغم من ذلك فهذه الآمال تتجدد مرة أخرى . ولكنها لا تزال مجرد آمال ، ولا تزال أمريكا تقوم بدور الرجل الدبلوماسي الذي يحرص على ابتسامته ، ويحرص على أن يأخذ صديقه بين ذراعيه ليمكن عدوه – عدو هذا الصديق – من طعنه في ظهره !

« لماذا لا تتبع أمريكا مع مصر والدول العربية الأخرى نفس السياسة التي تتبعها مع إسرائيل ؟

« لماذا لم تزودنا بالأسلحة والتعويضات والقروض كما تزود إسرائيل ؟

« ليس هناك معاهدة سياسية بين إسرائيل وأمريكا حتى يقال : إن هذه المساعدات إنما هي ثمن لهذه المعاهدة .

« ولا يمكن أن يكون الخطر الشيوعي أقوى على إسرائيل منه على الدول العربية حتى يقال : إن أمريكا تحاول حماية إسرائيل منه ..

« ولا يمكن أيضاً أن تكون مصالح أمريكا في إسرائيل أكثر من مصالحها في البلاد العربية حتى يقال : إن أمريكا تسعى وراء مصالحها ..

« إذن .. لماذا » ؟

ولقد كان من حقي أن أحيل هذا السؤال الى الدكتور أحمد حسين ،وجمعية الفلاح ،ووزراء الجمعية الأربعة او الخمسة .وسائر أصدقاء أمريكا . ولكنني أحب أن أجيب عنه جواباً قصيراً :

إن الاجابة على هذا السؤال هي التي تحدد خطوط سياستنا الخارجية .

إن أمريكا لا تعاملنا كما تعامل إسرائيل — لا نحن ولا أية دولة عربية ، لأننا قطاع في جبهة واحدة سمها الجبهة العربية ، أو سمها الجبهة الإسلامية إذا نظرت اليها على حقيقتها ، وهي أوسع من الرقعة العربية جميعاً — قطاع في إمبراطورية « الرجل الأبيض » التي تمثلها في الوقت الحاضر أمريكا وانجلترا وفرنسا وهولاندا .. هذه الامبراطورية تقف متساندة في وجه الكتلة الإسلامية في كل مكان ، وبسياسة متحدة ، قد يقع الخلاف في تفصيلاتها .

في قضية وادي النيل نحن نعرف السياسة الغربية معرفة جيدة .

وفي قضية فلسطين نحن نعرفها كذلك معرفة وثيقة .

وفي قضية الشمال الإفريقي يقول مستر فيليب جيسوب رئيس الوفد الأمريكي في هيئة الأمم :

« إن الولايات المتحدة تحاول الآن إقناع الكتلة العربية الآسيوية بعدم التطرف في عداء فرنسا ، وأنه « سعيد » لأن أعضاء هذه الكتلة، بدأوا يتراجعون عن موقف التطرف الشديد فيعدوانهم لفرنسا. وانالولايات المتحدة تريد أن يكون مشروع القرار الذي سيقدم الى الأمم المتحدة معتدلاً ، بحيث يقتصر على مطالبة الفريقين باستئناف المفاوضات !

وفي قضية كشمير ، نحن نعرف الى أي جانب يقف المعسكر الغربي . إنه يقف الى جانب الهند فعلاً !

أما انجلترا ، فتثير أفغانستان لتدخل مع باكستان في نزاع على الحدود من الناحية الأخرى !

إن سياسة « الرجل الأبيض » هي التي تتحكم . وهي التي تنظر الى مصر على أنها قطاع من جبهة كبيرة ، مرتبط بسائر القطاعات الأخرى .

إن القطاع المصري لا يقع عليه الهجوم وحده دون سائر الجبهة . فالدفاع عنه يجب أن يرتبط بالدفاع عن سائر القطاعات

الأخرى .

وإذن لا تكون المسألة مسألة « شهامة » أو اندفاع عاطفي، إنما هي مسألة نظرة أبعد الى حقيقة موقفنا الدولي .

إن وجود الجيش البريطاني في شرق الاردن ، وفي ليبيا ، لا يقل تأثيراً على استقلالنا من وجود هذا الجيش على ضفة القنال أو في جنوب الوادي .

كذلك ، وبنفس الدرجة فإن التهديد الذي ينشأ من وجود فرنسا في الشمال الإفريقي ، لا يقل عن قيام إسرائيل على حدودنا ، فكلها حلقات في النطاق الاستعماري .

إنني أوافق على أن تكون لنا سياسة مصرية تتقيد بحدود طاقتها ، ولكنني أعتقد مخلصاً أن خطوط هذه السياسة ، لا تبدأ فقط عند الحدود الجغرافية للوطن المصري .

إن الذين نتعامل معهم من الغربيين أو الشرقيين يعاملوننا على أننا مجرد قطاع في جبهة واحدة . فلا مفر إذن من أن نعاملهم كذلك !

إلى النائمين في العالم الإسلامي

نحن في مصر مشغولون لا نفيق ؛ ليس لدينا وقت للتفكير فيما يدبره لنا اليهود بمعاونة العالم الصليبي. نحن مشغولون بالانقلابات الوزارية[1] ، مشغولون كذلك بالانتخابات : هل تكون بالقائمة أم بالوزن ، أم بالكيل ؟ مشغولون بحكاية الاستثناءات ، هل ترد لأصحابها أم لا ترد ؟ ومن منهم ترد اليه استثناءاته ويزاد ، ومن منهم يؤخذ منه ما معه .

وهي أمور – كما ترى – من الأهمية بحيث لا تترك وقتاً ولا جهداً للتفكير في أي شيء آخر .

وفي هذا الوقت تقترب إسرائيل يوماً بعد يوم ، من حدود سيناء المصرية ، المصرية اسماً وإن كانت مصر لا تعرف عنها شيئاً ، لأن السياسة اليهودية – الانجليزية عزلتها عن مصر طوال فترة الاحتلال ، ولم يكن هذا العزل شيئاً عارضاً ولا أمراً غير مقصود ، إنما كان وفقاً لسياسة بعيدة الغور ، تتفق مع أطماع اليهودية العالمية .

---

(١) كتب هذا المقال حوالي ١٠ يوليو سنة ١٩٥٢ .

إن شبه جزيرة سيناء تشتمل على أقدس مقدسات اليهود . فمن جانب الطور الأيمن نودي موسى ، وعليه تلقّى الألواح ، وبه صخرة العهد. وسيناء هي أرض التيه. لذلك كله ترف حول سيناء أطماع اليهود التاريخية ، ويربّى ابناؤهم على عقيدة ان جزيرة سيناء هي قلب مملكتهم الموعودة، وما فلسطين الا جزءاً صغيراً من تلك المملكة التي تضم سيناء وفلسطين وشرق الاردن وقسماً من سورية والعراق حتى الرافدين .

وعلى هذا الاساس هم يعملون منذ أجيال ، وفي سنة ١٩٠٦ وفدت على مصر لجنة إنجليزية يهودية قضت في سيناء خمس سنوات كاملة ، تفحص عن كل شيء فيها ، وتنقب عن المياه الجوفية والاراضي الصالحة للزراعة ، والمعادن والطبيعة الجيولوجية بصفة عامة، والمناخ والطرق والأهمية الاستراتيجية، وعادت ومعها تقرير شامل يثبت أن سيناء صالحة لإسكان مليون نفس وإعاشتهم .

وقد عُني الانجليز بعزل سيناء عن كل نفوذ للحكومة المصرية ، وكان محافظ سيناء «جارفس» الانجليزي ، هو حارس شبه الجزيرة أن تمتد اليها عين مصرية، وأفهموا المصريين أن هذه الصحراء لا أمل فيها ولا ضرورة للإهتمام بها ، لأن المياه الجوفية فيها لا تصلح لخلق حياة مستقرة ، وكان هذا كله لحساب اليهود الذين يسيرون دفة بريطانيا .

ومن المعروف ان جيش إسرائيل ، عندما تجاوز الحدود

المصرية سنة ١٩٤٨ ، كان أول عمل لرجـاله عندمـا وطئت أقدامهم رمال الصحراء بعد رفح أن ترجلوا جميعاً، وقبّلوا تراب الأرض وأقاموا الصلاة ، ثم تابعوا خطواتهم في الارض المقدسة !

أما اليوم ، فهم يقيمون عـلى الحدود استحكامات قوية ، ويسكنون في أرضها الفتيان الفدائيين بزوجـاتهم وأولادهم ، يقطعونهم الارض ، ويبنون لهم مساكنهم تحتها — لا فوقها — ويمدونهم بالمال ليستصلحوها .

وأمامهم ألوف الأميال المربعة في الشقة المصرية خلاء ! فإذا أرادوا هم أن يزحفوا فسيزحفون من استحكاماتهم على الحدود ووراءهم العمار . وإذا أردنا نحن — حتى أن ندافـع — وقفت جيوشنا ، ووراءها هـذه الألوف من الأميال القاحلة الجرداء الخاوية من السكان .

لماذا ؟ لأننا نحن مشغولون، مشغولون بالانقلابات الوزارية ، مشغولون بالانتخابات : هل تكون بالقـائمة ، أم بغير القائمة ؟ مشغولون بالاستثناءات ومن ترد اليهم استثناءاتهم ومن لا ترد ؟ مشغولون بهذه الأمور الكبار ، التي لا يجوز أن يلهينا عنها خطر اليهود أو غير اليهود، وما تكون سيناء وهي صحراء جرداء الى جانب كراسي الوزارة الفخمة ومقاعدها الوثيرة ، وقاعـاتها المكيفة الهواء !

وفجأة — وفي هذه الظروف — تطلـع علينا نغمة لا يدري مبعثها الا الله ، والراسخون في العلم من اليهود والصليبيين . نغمة

تحديد النسل ... لماذا ؟ لأن مصر تضيق بسكانها، ولأن موارد الرزق لا تنمو بنسبة نمو السكان ، ولأن الارض الزراعية محدودة .

جميل ! نحن معكم في أنه حين تعجز موارد البلد عن إعالة سكانه يجب أن يقف نمو هؤلاء السكان ، ولكن حين تكون في موارد هذا البلد بقية فيجب أن يستمر سكانه في التزايد ، لأن نمو السكان في هذه الحالة ضمانة من ضمانات البقاء ، أمام تكتل الأعداء . وضمانة من ضمانات القوة في المجال الدولي . لأن الأمم التي تريد أن يكون لها وزن في الكتلة الدولية ، تحاول كلها زيادة سكانها . وأمامنا المانيا وإيطاليا وروسيا واليابان . بل أمامنا اسرائيل الصغيرة وهي تحاول مضاعفة سكانها ، على الرغم من كل ما يشاع من الازمة الاقتصادية الممسكة فيها بالخناق !

فهل استنفدت مصر وسائلها لزيادة مرافقها ؟ إن في مصر من الموارد والمرافق ، ما يكفي لإعاشة ضعف سكانها كما يقول بعض الخبراء ، وأمامنا مثل واحد في سيناء ، فهي كافية لإعاشة مليون من الناس ، لو وجدت من يعمرها ويرد اليها الحياة .

فلماذا يتجه التفكير أول ما يتجه الى وقف نمو السكان ؟

ومرة اخرى نكرر ، أننا لا نعارض – بل نحتم – وقف نمو السكان حين يثبت أن مرافق البلاد غير قابلة للنماء . اما حين يثبت أنها قابلة لأن تتضاعف ، فانه يكون من الحمق ، او

الاتجاه المريب ، أن تثور مثل هذه النغمة . لأن معناها وقف نمو البلاد ، لا من ناحية تعدادها فحسب ، ولكن كذلك من ناحية مرافقها . فضغط السكان قد ينبه الغافلين الى محاولة الاستغلال الكامل لمرافق البلاد

على أن حكاية تحديد النسل او زيادته ، لا تخضع لحسن الحظ لهذه الأفكار السطحية ، التي لا تحاول التعمق في دراسة الامور. إن الحرص على زيادة النسل في الريف ضرورة اقتصادية وضرورة اجتماعية . ولا عبرة بالمدن لأنها على هامش حياة الوطن !

إن الذي لا أولاد له في الريف ، يعيش في مستوى اقتصادي أقل من مستوى أبي الاولاد . كما أنه أقل هيبة وحصانة على الاعتداء ! وهذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية من القوة بحيث لا تستمع لنصائح السطحيين !

ولن يتغير حكم هذه العوامل ويخف ضغطها ، إلا حين ينتشر التعليم ، ويصبح هناك مورد آخر للرزق على العمل في الارض ، وقوة أخرى للحماية غير العضلات ! وعندئذ فقط يستطيع الشعب كذلك أن يستعيض من قوة العدد قوة العقل ، ليقف في وجوه أعدائه المحيطين به .

إن الفطرة تتصرف في هذا أحكم مما يتصرف السطحيون ، الذين يحسبون أنفسهم « مثقفين ! » ، فاذا عزّ على حضراتهم أن يدرسوا الأمور دراسة حقيقية ، فلا أقل من أن يدعوا الفطرة

تعمل بحكمتها ويغنونا عن حكمتهم الذهبية ، المستمدة من الدسائس اليهودية والصليبية !

وبعد ، فنعود الى استصراخ النائمين في العالم الاسلامي ، ليصحوا على مطامع الصهيونيين في سيناء . فإن مصر مشغولة الآن : مشغولة بالانقلابات الوزارية ، مشغولة بالانتخابات وهل تكون بالقائمة او بالوزن والكيل ؟ مشغولة بالاستثناءات وغير الاستثناءات ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . والأهم يقدّم . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إسلام أمريكاني

الأمريكان وحلفاؤهم مهتمون بالاسلام في هذه الايام ، إنهم في حاجة اليه ليكافح لهم الشيوعية في الشرق الأوسط ، بعد ما ظلوا هم يكافحونه تسعة قرون أو تزيد ، منذ أيام الحروب الصليبية ! إنهم في حاجة اليه ، كحاجتهم الى الالمان واليابان والطليان ، الذين حطّموهم في الحرب الماضية ، ثم يحاولون اليوم بكل الوسائل أن يقيموهم على أقدامهم ، كي يقفوا لهم في وجه الغول الشيوعي . وقد يعودون غداً لتحطيمهم مرة أخرى إذا استطاعوا !

والإسلام الذي يريده الأمريكان وحلفاؤهم في الشرق الاوسط ، ليس هو الاسلام الذي يقاوم الاستعمار ، وليس هو الاسلام الذي يقاوم الطغيان ، ولكنه فقط الاسلام الذي يقاوم الشيوعية ! إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم ، ولا يطيقون من الإسلام أن يحكم ، لأن الإسلام حين يحكم سينشىء الشعوب نشأة أخرى ، وسيعلّم الشعوب أن إعداد القوة فريضة ، وأن طرد المستعمر فريضة ، وأن الشيوعية كالاستعمار وباء . فكلاهما عدو ، وكلاهما اعتداء !

الأمريكان وحلفاؤهم إذن ؛ يريدون للشرق الاوسط إسلاماً أمريكانياً . ومن ثم تنطلق موجة إسلام في كل مكان . فالكلام عن الاسلام ينطلق في صحافة مصر هنا وهناك . والمناقشات الدينية تغرق صفحات بأكملها ، في صحف لم يعرف عنها في يوم ما حب الاسلام ولا معرفة الاسلام . ودور النشر – ومنها ما هو أمريكاني معروف – تكتشف فجأة أن الاسلام يجب أن يكون موضوع كتبها الشهرية . وكتّاب معروفون ذوو ماض معروف في الدعاية للحلفاء ، يعودون الى الكتابة عن الاسلام ، بعد ما اهتموا بهذا الاسلام في أيام الحرب الماضية ، ثم سكتوا عنه بعد انتصار الحلفاء ! والمحترفون من رجال الدين يصبح لهم هيل وهيلمان ، وجاه وسلطان ، والمسابقات عن الاسلام والشيوعية تخصص لها المكافآت الضخام[1] .

أما الاسلام الذي يكافح الاستعمار – كما يكافح الشيوعية – فلا يجد أحداً يتحدث عنه من هؤلاء جميعاً . وأما الاسلام الذي يحكم الحياة ويصرّفها ، فلا يشير اليه أحد من هؤلاء جميعاً .

إن الاسلام يجوز أن يستفتى في منع الحمل ، ويجوز أن يستفتى في دخول المرأة البرلمان ، ويجوز أن يستفتى في نواقض الوضوء . ولكنه لا يستفتى أبداً في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالي . ولا يستفتى أبداً في أوضاعنا السياسية والقومية ، وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات .

والديمقراطية في الاسلام ، والبر في الاسلام ، والعدل في

---

(١) كتب هذا البحث في أواخر يونيه عام ١٩٥٢ .

الاسلام . من الجائز أن يتناولها كتاب أو مقال . ولكن الحكم بالاسلام ، والتشريع بالاسلام ، والانتصار للإسلام ... لا يجوز أن يمسها قلم ولا حديث ولا استفتاء !

وبعد، فقد حدث أن هذا الاسلام الأمريكاني ،قد عرف أن في الاسلام شيئاً يقال له « الزكاة » . وعرف أن هذه الزكاة قد تقاوم التيار الشيوعي لو أخذ بها في الشرق من جديد . ومن هنا اهتمت « حلقة الدراسات الاجتماعية » التي عقدت في مصر في العام الماضي بدراسة حكاية « الزكاة » هذه ، أو بدراسة مسألة « التكافل الاجتماعي في الاسلام » .

ولما كانت أمريكا من وراء حلقة الدراسات الاجتماعية ، فإن ذوي الشأن في مصر لم يروا أن يقفوا في وجه حكاية الزكاة؛ كما وقفوا في وجهها يوم فكّر فيها عبد الحميد عبد الحق وهو وزير للشؤون الاجتماعية ! إن ذوي الشأن يستطيعون الوقوف في وجه الزكاة يوم يكون الآمر بها هو الله . أما يوم يكون الآمرون هم الأمريكان ، فليس أمامهم إلا الخضوع والإذعان !

وعلى ذلك ألفت في مصر لجنة من بعض اساتذة الشريعة في الجامعة ، وبعض رجال الازهر ، وبعض الباشوات ، لدراسة مسألة « التكافل الاجتماعي في الاسلام » ، وبخاصة حكاية الزكاة ، لا لوجه الله ، ولا لحساب الوطن ، ولكن لوجه الامريكان ، ولحساب حلقة الدراسات الاجتماعية .

وهنا بدا وجه الخطر . إن الامريكان لو عرفوا حقيقة

التكافل الاجتماعي في الاسلام لفرضوه فرضاً على الشرق الاوسط، لأنهم لن يجدوا سداً أقوى منه في وجه الشيوعية . والتكافل الاجتماعي في الاسلام يفرض على الاموال تكاليف ، ويفرض عليها حقوقاً ، ويعترف للملايين بحق الحياة . ودون هذا وتتقطع الأعناق .

وإذن فلا مفرَّ من تخبئة الأمر على الامريكان ! ولا مفر من الاحتيال على النصوص ، ولا مفر من تخفيف الأعباء التي يفرضها الاسلام على الاموال ؛ ولا مفر من أن تخرج اللجنة من الزكاة نفسها بظل باهت لا يتناول إلا التافه ، ولا يمس الأموال إلا بقفاز من حرير .

إنه لو كان الامر أمر الله والدين لهان ، ولكنه أمر الامريكان! إن ما تقرره الشريعة الاسلامية شيء ، وما تقرره حلقة الدراسات الاجتماعية شيء آخر ! إن حلقة الدراسات الاجتماعية لا يجوز أن تعرف سر الإسلام الذي لا تعرفه ، وإلا فرضته على أهل الإسلام !

ولكن بعض أعضاء اللجنة من المعاندين المكابرين الذين لا يعرفون كيف يكتمون النصوص ؛ ولا يعرفون كيف يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، ولا يعرفون كيف يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً .

هؤلاء الاعضاء ما يزالون متشبثين بأن يطلعوا الأمريكان على السر الخطير ، وما يزال الاعضاء الآخرون يلاقون من

تشبثهم عنتاً ، ولا يدري إلا الله كيف تسير الأمور !

إنها مهزلة بل إنها المأساة .. ولكن العزاء عنها أن للاسلام أولياءه ، أولياءه الذين يعملون له وحده ويواجهون به الاستعمار والطغيان والشيوعية سواء ، أولياءه الذين يعرفون ان الاسلام يجب أن يحكم كي يؤتي ثماره كاملة . أولياءه الذين لا تخدعهم صداقة الصليبيين المدخولة للاسلام ، وقد كانوا حرباً عليه تسعمائة عام .

إن أولياء الإسلام لا يطلبون باسمه براً وإحساناً ، ولكن يطلبون باسمه عدالة اجتماعيه شاملة كاملة ؛ ولا يجعلون منه أداة لخدمة الاستعمار ، والطغيان . ولكن يريدون به عدلاً وعزة وكرامة ؛ ولا يتخذون منه ستاراً للدعاية ، ولكن يتخذونه درعاً للكفاح في سبيل الحق والاستعلاء .

أما دور العلن الذي يعلن بالإسلام في هذه الأيام ؛ وأما المتّجرون بالدين في ربوع الشرق الأوسط ، أما الذين يسترزقون من اللعب به على طريقة الحواة ، أما هؤلاء جميعاً فهم الزبد الذي يذهب جفاء عندما يأخذ المدُ طريقه ، وسيأخذ المد طريقه سريعاً ، أسرع مما يظن الكثيرون ، إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » . صدق الله العظيم .

ضريبة الذل..

بعض النفوس الضعيفة يخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطـاق ، فتختار الذل والمهانة ، هرباً من هـذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة !

هؤلاء الأذلاء يؤدُّون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة . إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون .

وإنهم ليحسبون أنهم ينالون في مقابل الكرامة التي يبذلونها، قربى ذوي الجاه والسلطان حين يؤدون إليهم ضريبة الذل وهم صاغرون . ولكن كم من تجربة ، انكشفت عن نبذ الأذلاء نبذ النواة بأيدي سادتهم الذين عبدوهم من دون الله . كم من رجل باع رجولته ، ومرّغ خديه في الثرى تحت أقدام السادة ، وخنع وخضع ، وضحى بكل مقوّمات الحيــاة الإنسانية ، وبكل المقدسات التي عرفتها البشرية ، وبكل الأمانات التي ناطها الله

به او ناطها الناس ... ثم في النهاية اذا هو رخيص رخيص ،هين هين ، حتى على السادة الذين استخدموه كالكلب الذليل؛ السادة الذين لهث في إثرهم ، ووصوص بذنبه لهم، ومرغ نفسه في الوحل ليحوز منهم الرضاء !

كم من رجل كان يملك أن يكون شريفاً ، وأن يكون كريماً ، وأن يصون امانة الله بين يديه ، ويحافظ على كرامة الحق وكرامة الإنسانية ، وكان في موقفه هذا مرهوب الجانب ، لا يملك له أحد شيئاً، حتى الذين لا يريدون له ان يرعى الأمانة ، وأن يحرس الحق ، وأن يستمز بالكرامة ، فلما ان خان الأمانة التي بين يديه ، وضعف عن تكاليف الكرامة ، وتجرد من عزة الحق ، هان على الذين كانوا يهابونه ، وذل عند من كانوا يرهبون الحق الذي هو حارسه ، ورخص عند من كانوا يحاولون شراءه، رخص حتى اعرضوا عن شرائه ، ثم نبذ كما تنبذ الجيفة ، وركلته الأقدام، أقدام الذين كانوا يعدونه ويمنُّونه ، يوم كان له من الحق جاه ، ومن الكرامة هيبة ، ومن الأمانة ملاذ .

كثير هم الذين يهوون من القمة الى السفح ، لا يرحمهم احد ، ولا يترحم عليهم احد . ولا يسير في جنازتهم أحد، حتى السادة الذين في سبيلهم هووا من قمة الكرامة الى سفوح الذل ، ومن عزة الحق الى مهاوي الضلال .

ومع تكاثر العظات والتجارب ، فإننا ما نزال نشهد في كل يوم ضحية : ضحية تؤدي ضريبة الذل كاملة ، ضحية تخون الله

والناس ، وتضحي بالأمـانة وبالكرامة . ضحية تلهث في إثر السادة ، وتلهث في إثر المطمع والمطمح ، وتلهث وراء الوعود والسراب .. ثم تهوي ، وتنزوي هنالك في السفح خانعة مهينة ، ينظر اليها الناس في شماتة ، وينظر إليها السادة في احتقار .

لقد شاهدت في عمري المحدود — وما زلت أشاهد — عشرات من الرجـال الكبار يحنون الرؤوس لغير الواحد القهار[1] ، ويتقدمون خاشعين ، يحملون ضرائب الذل تبهظ كواهلهم ، وتحني هـاماتهم ، وتلوي أعناقهم ، وتنكس رؤوسهم .. ثم يطردون كالكلاب ، بعد أن يضعوا أحمالهم ، ويسلموا بضاعتهم ، ويتجردوا من الحسنيين : في الدنيا والآخرة ، ويمضون بعد ذلك في قافلة الرقيق لا يحس بهم أحد حتى الجلاد !

لقد شاهدتهم وفي وسعهم أن يكونوا أحراراً ، ولكنهم يختارون العبودية . وفي طاقتهم أن يكونوا أقوياء ، ولكنهم يختارون التخاذل . وفي إمكانهم أن يكونوا مرهوبي الجانب ، ولكنهم يختارون الجبن والمهانة .. شاهدتهم يهربون من العزة كي لا تكلفهم درهماً ، وهم يؤدون للذل ديناراً أو قنطاراً . شاهدتهم يرتكبون كل كبيرة ليرضوا صاحب جاه أو سلطان ، ويستظلوا بجاهه أو سلطانه وهم يملكون أن يرهبهم ذوو الجاه والسلطان !

لا ، بل شاهدت شعوباً بأسرها تشفق من تكاليف الحرية مرة ، فتظل تؤدي ضرائب العبودية مرات . ضرائب لا تقاس اليها

---

(١) كتب هذا الفصل في أواسط يونيه سنة ١٩٥٢ .

تكاليف الحرية ، ولا تبلغ عشر معشارها . وقديماً قالت اليهود لنبيها : « يا موسى إن فيها قوماً جبّارين ، وإنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا. انا هاهنا قاعدون».. فأدت ثمن هذا النكول عن تكاليف العزة ، أربعين سنة تتيه في الصحراء تأكلها الرمال ، وتذلها الغربة ، وتشردها المخاوف . . وما كانت لتؤدي معشار هذا كله ثمناً للعزة والنصر في عـالم الرجال !

إنه لا بد من ضريبة يؤديها الأفراد ، وتؤديها الجماعـات ، وتؤديها الشعوب . فإما أن تؤدّى هذه الضريبة للعزة والكرامة والحرية ، وإما أن تؤدّى للذلة والمهانة والعبودية ! والتجارب كلها تنطق بهذه الحقيقة التي لا مفر منها ولا فكاك .

فإلى الذين يفرقون من تكاليف الحرية ، الى الذين يخشون عـاقبة الكرامة ، الى الذين يمرغون خدودهم تحت مواطىء الأقدام ، الى الذين يخونون أماناتهم ، ويخونون كرامـاتهم ، ويخونون إنسانيتهم ، ويخونون التضحيات العظيمة التي بذلتها أمتهم ، وبذلتها الإنسانية لتتحرر وتتخلص .

الى هؤلاء جميعاً ؛ أوجه الدعوة أن ينظروا في عبر التاريخ ، وفي عبر الواقع القريب؛ وأن يتدبروا الأمثلة المتكررة التي تشهد بأن ضريبة الذل أفـدح من ضريبة الكرامة ، وأن تكاليف الحرية أقـل من تكاليف العبودية، وأن الذين يستعدون للموت توهب لهم الحياة ، وأن الذين لا يخشون الفقر يرزقون الكفاية،

وأن الذين لا يرهبون الجاه والسلطان يرهبهم الجاه والسلطان .

ولدينا أمثلة كثيرة وقريبة ، على الأذلاء الذين باعوا الضمائر وخانوا الأمـــانات ، وخذلوا الحق وتمرغوا في التراب ، ثم ذهبوا غـير مأسوف عليهم من أحد ، ملعونين من الله ! ملعونين من الناس ! وأمثلة كذلك — ولو أنها قليلة — على الذين يأبون أن يذلوا ، ويأبون أن يخونوا ، ويأبون أن يبيعوا رجولتهم بيــع السماح . وقد عاش من عاش منهم كريماً ، ومات من مات منهم كريماً .

« من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلا » .

العبيد ...

ليس العبيد هم الذين تقهرهم الأوضاع الاجتماعية ، والظروف الاقتصادية ، على أن يكونوا رقيقاً ، يتصرف فيهم السادة كما يتصرفون في السلع والحيوان ، إنما العبيد الذين تعفيهم الأوضاع الاجتماعية والظروف الاقتصادية من الرق ، ولكنهم يتهافتون عليه طائعين !

العبيد هم الذين يملكون القصور والضياع ، وعندهم كفايتهم من المال ، ولديهم وسائلهم للعمل والانتاج ، ولا سلطان لأحد عليهم في أموالهم أو أرواحهم . . وهم مع ذلك يتزاحمون على أبواب السادة، ويتهافتون على الرق والخدمة ، ويضعون بأنفسهم الأغلال في أعناقهم ، والسلاسل في أقدامهم ، ويلبسون شارة العبودية في مباهاة واختيال !

العبيد هم الذين يقفون بباب السادة ، يتزاحمون وهم يرون بأعينهم كيف يركل السيد عبيده الأذلاء في الداخل بكعب حذائه ، كيف يطردهم من خدمته دون إنذار أو إخطار ، كيف يطأطئون هاماتهم له فيصفع أقفيتهم باستهانة ، ويأمر بإلقائهم خارج الأعتاب ، ولكنهم بعد هذا كله يظلون يتزاحمون

على الأبواب ، يعرضون خدماتهم بدل الخدم المطرودين ، وكلما أمعن السيدفي احتقارهم زادوا تهافتاً كالذباب !

العبيد ، هم الذين يهربون من الحرية ، فإذا طردهم سيّد بحثوا عن سيد آخر ، لأن في نفوسهم حاجة ملحة الى العبودية . لأن لهم حاسة سادسة .. أو سابعة ، حاسة الذل .. لا بد لهم من إروائها ، فإذا لم يستعبدهم أحد أحسّت نفوسهم بالظمأ الى الاستعباد، وتراموا على الأعتاب ، يتمسحون بها، ولا ينتظرون حتى الإشارة من إصبع للسيد ، ليخروا له ساجدين !

العبيد ، هم الذين إذا أعتقوا وأطلقوا حسدوا الأرقاء الباقين في الحظيرة ، لا الأحرار المطلقي السراح ، لأن الحرية تخيفهم ، والكرامة تثقل كواهلهم ، لأن حزام الخدمة في أوساطهم هو شارة الفخر التي يعتزون بها ، ولأن القصب الذي يرصع ثياب الخدمة هو أبهى الأزياء التي يتعشقونها !

العبيد ، هم الذين يحسون النير لا في الأعناق ولكن في الأرواح ، الذين لا تلهب جلودهم سياط الجلد ، ولكن تلهب نفوسهم سياط الذل . الذين لا يقودهم النخّاس من حلقات في آذانهم ، ولكنهم يقادون بلا نخاس ، لأن النخاس كامن في دمائهم .

العبيد ، هم الذين لا يجدون أنفسهم إلا في سلاسل الرقيق ، وفي حظائر النخاسين ، فإذا انطلقوا تاهوا في خضم الحياة وضلوا في زحمة المجتمع ، وفزعوا من مواجهة النور ، وعادوا طائعين

يدقون أبواب الحظيرة ، ويتضرعون للحراس أن يفتحوا لهم الأبواب !

• • •

والعبيد – مع هذا – جبارون في الأرض ، غلاظ على الأحرار شداد ، يتطوعون للتنكيل بهم ، ويتلذذون بإيذائهم وتعذيبهم ، ويتشفَّون فيهم تشفي الجلادين العتاة !

إنهم لا يدركون بواعث الأحرار للتحرر ، فيحسبون التحرر تمرداً ، والاستعلاء شذوذاً ، والعزة جريمة ، ومن ثم يصبّون نقمتهم الجامحة على الأحرار المعتزين ، الذين لا يسيرون في قافلة الرقيق !

إنهم يتسابقون الى ابتكار وسائل التنكيل بالأحرار ، تسابقهم الى إرضاء السادة ، ولكن السادة مع هذا يملّونهم ويطردونهم من الخدمة ، لأن مزاج السادة يدركه السأم من تكرار اللعبة ، فيغيرون اللاعبين ويستبدلون بهم بعض الواقفين على الأبواب !

ومع ذلك كله فالمستقبل للأحرار . المستقبل للأحرار ، لا للعبيد ولا للسادة الذين يتمرغ على أقدامهم العبيد . المستقبل للأحرار ، لأن كفاح الإنسانية كلها في سبيل الحرية لن يضيع . ولأن حظائر الرقيق التي هُدمت لن تقام ، ولأن سلاسل الرقيق التي حطّمت لن يعاد سبكها من جديد !

إن العبيد يتكاثرون. نعم: ولكن نسبة الأحرار تتضاعف،

والشعوب بكاملها تنضم الى مواكب الحرية ، وتنفر من قوافل الرقيق ، ولو شاء العبيد لانضموا الى مواكب الحرية ، لأن قبضة الجلادين لم تعد من القوة بحيث تمسك بالزمام ، ولأن حطام العبودية لم يعد من القوة بحيث يقود القافلة ، لولا أن العبيد — كما قلت — هم الذين يدقون باب الحظيرة ، ليضعوا في أنوفهم الخطام !

ولكن مواكب الحرية تسير ؛ وفي الطريق تنضم اليها الألوف والملايين .. وعبثاً يحاول الجلادون أن يعطلوا هذه المواكب أو يشتتوها بإطلاق العبيد عليها. عبثاً تفلح سياط العبيد ولو مزقت جلود الأحرار . عبثاً ترتد مواكب الحرية بعدما حطمت السدود ، ورفعت الصخور ، ولم يبق في طريقها إلا الأشواك !

إنما هي جولة بعد جولة . وقد دلت التجارب الماضية كلها ، على أن النصر كان للحرية في كل معركة نشبت بينها وبين العبودية .

قد تدمى قبضة الحرية ، ولكن الضربة القاضية دائماً تكون لها . وتلك سنة الله في الأرض ، لأن الحرية هي الغاية البعيدة في قمة المستقبل ، والعبودية هى النكسة الشاذة الى حضيض الماضي !

إن قافلة الرقيق تحاول دائماً أن تعترض موكب الحرية .. ولكن هذه القافلة لم تملك أن تمزق المواكب يوم كانت تضم القطيع كله ، والموكب ليس فيه إلا الطلائع ، فهل تملك اليوم — وهي لا تضم إلا بقايا من الأرقاء — أن تعترض الموكب الذي

يشمل البشرية جميعاً ؟

وعلى الرغم من ثبوت هذه الحقيقة ، فإن هنالك حقيقة أُخرى لا تقل عنها ثبوتاً، إنه لا بد لموكب الحريات من ضحايا.. لا بد أن تمزق قافلة الرقيق بعض جوانب الموكب .. لا بد أن تصيب سياط العبيد بعض ظهور الأحرار ، لا بد للحرية من تكاليف، إن للعبودية ضحاياها وهي عبودية، أفلا يكون للحرية ضحاياها وهي الحرية ؟

هذه حقيقة ، وتلك حقيقة . ولكن النهاية معروفة ، والغاية واضحة ، والطريق مكشوف ، والتجارب كثيرة ، فلندع قافلة الرقيق وما فيها من عبيد تزين أوساطهم الأحزمة ، ويحلي صدورهم القصب ، ولنتطلع الى موكب الأحرار ومافيه من رؤوس تزين هاماتها مياسم التضحية ، وتحلي صدورها أوسمة الكرامة. ولنتابع خطوات الموكب الوئيدة في الدرب المفروش بالشوك ، ونحن على يقين من العاقبة ، والعاقبة للصابرين .

قوة الكلمة

في بعض اللحظات ، لحظات الكفاح المرير الذي كانت الأمة تزاوله في العهد الذي مات .. كانت تراودني فكرة يائسة ، وتلح عليّ إلحاحاً عنيفاً . أسأل نفسي في هذه اللحظات : ما جدوى أن تكتب ؟ ما قيمة هذه المقالات التي تزحم بها الصحف ؟ اليس خيراً من هذا كله أن تحصل لك على مسدس وبضع طلقات ، ثم تنطلق تسوي بهذه الطلقات حسابك مع الرؤوس الباغية الطاغية ؟ ما جدوى ان تجلس الى مكتب ، فتفرغ حنقك كله في كلمات ، وتصرف طاقتك كلها في شيء لا يبلغ الى تلك الرؤوس التي يجب أن تطاح ؟!

ولا أنكر أن هذه اللحظات كانت تعذبني . كانت تملأ نفسي ظلاماً ويأساً . كانت تشعرني بالخجل أمام نفسي . خجل العجز عن عمل شيء ذي قيمة !

ولكن هذه اللحظات لحسن الحظ لم تكن تطول . كان يعاودني الأمل في قوة الكلمة . كنت القى بعض من قرأوا لي مقالاً ، أو أتلقى رسائل من بعضهم ، فأسترد ثقتي في جدوى هذه الأداة . كنت أحس أنهم يتواعدون معي على شيء ما :

شيء غامض في نفوسهم ، ولكنهم ينتظرونه ، ويستعدون له ، ويثقون به ! .

كنت أحس ان كتابات المكافحين الأحرار لا تذهب كلها سدى ، لأنها توقظ النائمين ، وتثير الهامدين ، وتؤلف تياراً شعبياً يتجه الى وجهة معينة ، وإن لم تكن بعد متبلورة ولا واضحة . ولكن شيئاً ما كان يتم تحت تأثير هذه الأقلام .

ولكنني مع هذا كنت أعود — في لحظات اليأس والظلام — لأتهم نفسي . كنت أقول : أليس هذا الإيمان بقوة الكلمة تعلة العجز عن عمل شيء آخر ؟ ألا يكون هذا ضحكاً من الإنسان على نفسه ليطمئن الى أنه يعمل شيئاً ، وليهرب من تبعة التقصير والجبن ؟

وهكذا كنت أعيش طوال فترة الكفاح الماضية . حتى شاء الله أن يطلع الفجر الجديد ، وأن تنكشف الغمة المعتمة ، وأن يتنفس الناس الهواء النظيف الذي حملته الثورة ، ، وأن يصبح هذا الصراع ذكرى يضمها التاريخ في ثناياه .

واليوم خطر لي أن أرجع الى بعض القصاصات ، التي تحوي بعض ما كنت أكتب في ذلك العهد الرهيب .

ولست أنكر انني فوجئت مفاجأة شديدة . إن قوة الكلمة شيء عجيب . إن أحلاماً كاملة قد أصبحت حقيقة واقعة ، وإن نبوءات قد صحت برمتها . لكأنما كانت أبواب السماء مفتوحة ،

والمكافحون الأحرار يكتبون ويتوجهون بكل قلوبهم مع هذه الكلمات . وإلا فمن يصدق – حتى أنا – انني كتبت منذ أكثر من عام مثل هذه الفقرات :

« لقد بدأنا في هـذه المرة بدءاً أكيداً ، لأننا بدأنا بدءاً صحيحاً. لقد خر اثنان من الفلاحين مضرجين بدمائهما الطاهرة، أولهما في كفور نجم بتفتيش محمـد علي .. والثاني في بهوت في تفتيش البدراوي .

« لقد سالت دماؤهما في هذه المرة لا في ثأر عائلي ولا في معركة انتخابية كما اعتادت سجلات البوليس أن تسجل، ولكنها سالت في معركة الأرض! الارض الطيبة التي روى تربتها الملايين بالعرق والدموع ، ولم ينالوا منها شيئاً ، ثم ها هم أولاء أخيراً قد بدأوا يروونها بالدماء . ولن تخونهم الثمرة في هذه المرة ، لأن بذرة الدم لم تخب يوماً في التاريخ ، ولن تخيب .

« لقد خر أول شهيدين في معركة الارض المقدسة أردتهما الايدي الاثيمة . وسيتبعهما آخرون حتماً ، فهـذا الاقطاعي المجنون لن يصبر على أن يرفع العبيد رؤوسهم . ولن يطيق أن يسوء أدب الرقيق في حق الاسياد . ولن يكف عن إراقـة الدماء، وإذن فلقد بدأنا!

«إن ملكية هذه الارض الطيبة قد رُدت على أصحابها الحقيقيين. إن وثيقة التملك السماوية قد كتبت ولن تفسخ أبداً. لقد كتبت بالمادة التي لا تمحى ، كتبت بالدماء ، فإذا لم تكن ذات الارض

قــد رُدت بعد ، فإنها منذ اليوم تعد مغصوبة والاغتصاب لن يدوم .

« إن هؤلاء الاقطاعيين الحمقى سيوقعون في كل يوم وثيقة بالتنازل عن الارض المغصوبـة . سيوقعونها في صورة رصاصة طائشة تخترق صدر شهيد ، أو بلطة مجرمـة تمزق جثمان بطل . ولكنها ستكون هي هي وثيقة التنــازل عن الارض ، ووثيقة التملك للآخرين المحرومين .

« لقد طال ليل الظلم وطال ارتقابنا للفجر الجديد، ثم ها هو الفجر يلوح، لقد تلألأت أشعته الأولى، تلألأت في هذه القطرات الزكية من الدم المسفوح . إنها ليست قطرات من الدم الرخيص في معركة انتخابية ، إنها دماء عزيزة غالية ، لأن وراءها قضية طال عليها العمر : قضية مرت بها القرون تلو القرون ، قضية كانت في حاجة الى مستند لا ينقض ، والى حجة لا ترد ، ولقد كتبت هذه الحجة الأزلية في كفور نجم ، وفي بهوت . كتبت وانتهت وليس الى مردّ من سبيل !

« ستكتب في كل يوم وثيقة جديدة . ستكتب بفضل حماسة الحمقى الذين لا يؤمنون بالنذر ، الذين تأخذهم العزة بالإثم ، الذين مردوا على التكبر الفاجر والاستغلال القذر ، الذين لا يطيقون أن تقف قامة واحدة منتصبة ، ولا رأس واحد مرفوعاً ، الذين ألفت عيونهم رؤية الراكعين الساجدين في عشرات القرون .

« إن هــذه القطرات الطاهرة من الدمــاء العزيزة ستتحول

ناراً مقدسة تحرق ، ونوراً سماوياً يضيء ، ولن تخمد الشعلة أبداً بإذن الله ، ولن ينطفىء النور أبداً وهو من نور الله !

« اللهم حمداً لك وشكراً . اللهم حمداً لك وشكراً . اللهم بارك نارك المقدسة التي أوقدت ، ونورك السماوي الذي اطلعت ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

قرأت هذه الفقرات التي كتبت منذ أكثر من عام مضى ، ثم عدت أسأل : أية قوة غير قوة الكلمة كانت تملك في ذلك الوقت الرهيب المظلم ان تشق حجاب الغيب ، وان تتجاوز العقبات والاشواك ، وان ترقم في السجل الخالد ذلك الواقع المشهود ؟

ثم عدت أسأل من جديد : ما سر قوة الكلمة ؟

إن السر العجيب ليس في بريق الكلمات وموسيقى العبارات ؛ إنما هو كامن في قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلولات ! إنه في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة الى حركة حيّة والمعنى المفهوم الى واقع ملموس .

في هـذا يكمن سر الكلمة وفي شيء آخر : في استمداد الكلمات من ضمائر الشعوب ، ومن مشاعر الإنسان ، ومن صرخات البشرية ، ومن دماء المكافحين الأحرار .

إنه ليست كل كلمة تبلغ الى قلوب الآخرين فتحركها ، وتجمعها وتدفعها . إنها الكلمات التي تقطر دماء لأنها تقتات قلب إنسان حي . كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان . أمـا

الكلمات التي ولدت في الأفواه ، وقذفت بها الألسنة ، ولم تتصل بذلك النبع الإلهي الحي ، فقد ولدت ميتة ، ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً الى الأمام. ان أحداً لن يتبناها، لأنها ولدت ميتة. والناس لا يتبنون الاموات .

إن أصحاب الاقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً . ولكن بشرط واحد : ان يموتوا هم لتعيش أفكارهم . أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم . أن يقولوا ما يعتقدون انه حق ، ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق . أن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدة ، حتى اذا متنا في سبيلها او غذيناها بالدماء ، انتفضت حية ، وعاشت بين الأحياء .

فإلى الذين يجلسون الى مكاتبهم ، يكدون قرائحهم ، لينتقوا اللفظ الأنيق ، وينمقوا العبارة الرنانة ، ويلفقوا الاخيلة البراقة.

إلى هؤلاء أتوجه بالنصيحة : وفّروا عليكم كل هذا العناء ؛ فإن ومضة الروح ، وإشراق القلب ، بالنار المقدسة ، نار الإيمان بالفكرة ... هو وحده سبب الحياة . حياة الكلمات وحياة العبارات .

. . .

ثم ماذا ؟

ثم لا يقعدن القادر على العمل ، وهو يطمع ان يؤدي واجبه بالكلام . ذلك خاطر أحب ان أحذر منه بعدما أسلفت من الإيمان بقوة الكلمة ، والى آثارها الملموسة في الحياة .

إنــــه في كثير من الأحيان ، يكون القول الفصل للشاعر الذي يقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حدّه الحدّ بين الجِدّ واللعب

وفي كثير من الأحيان ، يصبح من العبث أن نظل نتكلم ونتكلم ، ثم لا نفعل شيئاً . إن الكلمات في هذه الحالة تكون استهلاكاً للطاقة الكامنة وليست توليداً للطاقة .

ثم إن عدداً نادراً من الكتاب الموهوبين ، هم الذين يملكون ان يحولوا الكلمات الى طاقة . أما القاعدة فهي ان يعمل الناس ، وأن يحققوا بالعمل ما يريدونه من مقدرات .

والكلمة ذاتها –مهما تكن مخلصة وخالقة– فإنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، قبل ان تستحيل حركة ، وأن تتقمص إنساناً . الناس هم الكلمات الحية التي تؤدي معانيها أبلغ أداء .

إن الفارق الأساسي بين العقائد والفلسفات ، أن العقيدة كلمة حية تعمل في كيان إنسان ، ويعمل على تحقيقها إنسان . أما الفلسفة فهي كلمة ميتــــة ، مجردة من اللحم والدم ، تعيش في ذهن ، وتبقى باردة ساكنة هناك .

ومن هنا كانت العقائد هي الحادي ، الذي سارت البشرية على حدائه ، في درب الحياة المتعرج الطويل . تصعد الروابي وتهبط السفوح ، وتردد حداءه في المتاهــــة المهلكة ، فتنجو وتحيا ، وترتقي وتثق في رسالتها ، لأنها رسالة تنبع من أعماق الضمير ، ويشتعل بها الوجدان ، ويتلألأ بها الشعور .

إنه لا بد من عقيدة . وقوة الكلمة إنما تنبع من أنها ترجمان العقيدة. والعقيدة هي التي يغذيها الناس بحياتهم فتوهب لهم الحياة.

إنها العقيدة في الله

قال له صاحبه – وهو يحاوره – يا أخي اسمح لي أن أقول لك : إنني لم أعد أفهمك .. إنك تريد أن تقف في وجه التيار.. إنك تلقي بنفسك الى التهلكة بلا روية .. إنك تتصرف كما لو كنت تريد أن تتخلص من الحياة .. قل لي : لحساب من تعرّض نفسك لكل هذا ؟ إن الشعب لم يبلغ درجة من الوعي تتابعك في أهدافك وتدرك ما الذي أنت تريد .. وأنت تجابه قوى جارفة ، قوى تملك أن تشتري دولاً وأمماً وشعوباً . قوى مدربة لها عملاء في كل مكان ، ولها أجهزتها التي مرنت على العمل .. هذه القوى تملك أن تحيلك متهماً في أعين مواطنيك .. تملك أن تجردك من سمعتك ذاتها فتظهرك للناس خائناً ، وتجد ألف شاهد وألف جهاز من أجهزة الدعاية تهتف بذلك ليل نهار .. إنك لست غنياً ،ولست فتياً ،فأنت رجل تدلف الى الكهولة.. وأنت لا تستند الى حزب او هيئة تنفق عليك اذا انقطع رزقك ، او تنفق على أهلك اذا انقطع عنهم عونك لسبب من الأسباب .. يا أخي . إنني لم أعد أفهمك في هذه الأيام !

كان صاحبه يلقي عليه هذه العبارات ويقرعه بهذه النذر

ـ في حماسة وفي حرارة وفي غضب وفي إشفاق ـ فلم يترك له فرصة للحديث حتى انتهى واستراح وتطلع الى الجواب !

وابتسم صاحبنا وهو يقول :

ـ يا أخي ، إنني أدرك هذه المخاوف كلها ، وأبصر هذه المخاطر جميعها . وأعلم أنك عـلى صواب فيما تقول ، وأقدر حرصك على شخص صديقك ، وزميل صباك .. ولكنك يا أخي ذكرت كل شيء ونسيت السبب الواحد الذي قد يعلل لك ما تراه .. ذكرت الشعب ، وذكرت الوطن، وذكرت الصحة ، وذكرت المال ، وذكرت القوى الجارفة التي تملك ان تشتري الأمم والدول والشعوب ، او تضللها ، بحيث لا تعرف الخونة من الشرفاء .. كل هذا صحيح . ولكنك نسيت الله ..

قال له صاحبه ـ وهو يحاوره ـ : لا يا سيدي لم أنس الله . ولكني أعرف ان محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ حين كان يواجه مثلما تواجه كان رسولاً من عند الله ، يتلقى الوحي ، ويتلقى الإرشاد والتوجيه ، ويتلقى النصر والتأييد . ويتلقى خمسة آلاف من الملائكة مسومين .. وأنت ماذا تكون ؟

وعاد صاحبنا يبتسم في رضى . قال :

ـ الآن يا صديقي كدنا نلتقي .. إنني لست نبياً ولا رسولاً ، ولست أتلقى وحياً ولا ملائكة .. ولكنني رجل يؤمن بالله . وكل من يؤمن بالله في هذه الأرض ـ في أي زمان وفي أي مكان عليك أن ينتظر من الله ـ فيما عدا الوحي والملائكة ـ كلما آتاه

الله لرسوله في هذا المجال ، ما دام يتبع خطاه . والمؤمنون حيث كانوا ، هم أصحاب ذلك الميراث الضخم ما داموا على هداه ..

هذا الميراث الضخم يا صديقي مزيج من الابتلاء والعافية ، مزيج من الكفاح والنصر ، مزيج من الضراء والسراء . ولكن العاقبة معروفة :

« لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يَمْسَسْكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنَّوْنَ الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

ولم يدعه صاحبه يسترسل في تلاوة آيات أخرى من الكتاب الخالد . فأسكته باشارة من يده وهو يقول :

— فهمت . فهمت . إذن أنت تريد أن تموت .

قال صاحبنا :

— لا يا صديقي ، إنك لم تفهمني بعد . إنني ما أردت أن

أموت . أؤكد لك ذلك ، إنني أريد أن أحيا . أريد أن أحيا حياة طويلة . فأنا لم أشبع بعد من هذه الحياة : وأنا لم أتم إلا القليل من الواجبات التي أرجو أن أوفق إلى النهوض بها ... وأمر آخر ، إنني قد بعدت فترة في حياتي عن الله. وإنني لأرجو أن أعيش حتى أنفق من عمري في قربه فترة تعدل كفتي الميزان.

وأنا في النهاية لا أنسى أنني رجل ذو أعباء .

واستعجله صاحبه مرة أخرى فأسكته مقاطعاً .

— أنا لا يهمني شخصك ، فلتصنع به كيف شئت . ولكن تعنيني هذه الأعباء . إنك رجل لا تحتمل صحتك الأذى . وموتك أقرب الأشياء. فماذا تترك لأهلك من رصيد، ورصيدك الذي أعرفه مجموعة اصفار .

قال صاحبنا في اطمئنان :

— وماذا يصنع أهلي هؤلاء اذا أنا مت على فراشي اللحظة كما يموت البعير ؟ والحياة كلها أنفاس : نفس يدخل فلا يخرج ، ونفس يخرج فلا يدخل ! هل يتخذون لهم نفقاً في الأرض أم سلماً في السماء ؟

« قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

وأنا يا صديقي لا أريد — كما قلت — أن أموت ... ولكن الموت والحياة غيب من غيب الله . فلا يجوز أن يكونا في حساب أحد يريد أن يؤدي واجباً ، او يغيّر منكراً، او يذهب

او يجيء حتى في تجارة ومعاش .

« وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » .

قال صاحبه فجأة :

– اسمع أقص عليك حكاية وقعت ، تؤيدك فيما تقول ... في عام ١٩٣٠ كانت هناك أزمـة في عـالم المدرسين ، أزمـة عكسية . كان المدرسون الذين يتخرجون في معاهد المعلمين لا يجدون لهم أماكن في الوزارة ولا في التعليم الأهـلي ، إلا القليل . وكان أصحاب المدارس الحرة يستغلون زيادة العرض على الطلب ، فيعرضون عـلى المدرسين شروطاً مجحفة ، منهـا ضآلة المرتبات ، وحرمان المدرسين من مرتباتهم كلية في أشهر الصيف ... وكان لنا زميل تعرفه – فلان – ذو عيال ، لذلك كان مهموماً : مـاذا يصنـع بعيـاله في أشهر الصيف ، وهو لا يستطيع أن يوفر شيئاً من مرتبه الضئيل في أثنـاء العـام ... ومرة كان يتململ وهو يعرض سبب اكتئابه لرجل ريفي ساذج من بلدهم . واذا هذا الرجل الريفي يسأل في استنكار وفي سذاجة كذلك : وهو ربنا يا أخي كان مات ؟

وساد كليهما الصمت ... صمت عميق ... صمت او معنى لا تعبر عنه الكلمات ...

. . .

وكنت حاضراً هذا الحوار ... كنت أسمعه عن كثب دون

تجسس ولا فضول ، فلقد كان مسموعاً للقريبين في النادي الذي يضم مع الصديقين كثيرين ... وأدركني الصمت الذي شمل الصديقين .. حقاً . هل الله قد مات ؟ سبحانه وتعالى ... الحي القيوم الذي لا يموت ...

ثم راحت الخواطر تنهال علي: ترى من أين يتلقى المكافحون القوة للكفاح ؟

من تقدير الوطن وتكريم الشعب ؟ إنه سند غير مضمون . إن الشعوب أحياناً تكون في درجة من الوعي لا تسمح لها بالتقدير . بل إنها أحياناً لتحطم من يريدون لها الخير ، وتصفق للمهرجين .

من الثقة بالنفس والاعتداد بالذات ؟ إنه سند غير مضمون كذلك . إن النفس لتنهار أحياناً أمام الإغراء وأمام التهديد . فإذا ثبتت لهما فقد لا تثبت على تنكر الوطن والشعب ، وعلى التلويث المزور الذي يمكن أن ينال أكرم الرجال .

إنه لا بد من سند ثابت لا يتزعزع . لا بد من الارتكان إلى قوة أكبر من قوى الأرض ، ليقف المكافحون أمام التهديد ، ولا بد من جزاء أكبر من مطامع الأرض كلها ، ليقف المكافحون أمام الإغراء ، ولا بد من صلة أوثق من صلات الأرض كلها ، ليقف المكافحون أمام تنكر الشعوب والأوطان ...

وعبثاً يبحث المكافحون عن سند في هذه الأرض ، عبثاً يبحثون عن قوة في هذه الحياة .

إن هنالك سنداً واحداً لا يتزعزع . إن هنالك قوة واحدة لا تهون ...

إنها العقيدة في الله ...

أدب الانحلال

كان مقرراً أن يذاع هذا الحديث من محطة الاذاعة المصرية في الساعة الثامنة من مساء ١٠ من شهر أغسطس ١٩٥٢ ، ولكن جو المحطة لم يكن قد تطهر بعد الى الحد الذي يسمح باذاعة مثل هذا الحديث ! إن الكثيرين هناك يحسبون أنفسهم مقصودين بوصف « العبيد » . كما ان الحماية ما تزال مفروضة على الاصوات الدنسة التي تذيع على الناس : « الدنيا سيجارة وكاس » !

أدب الانحلال هو في الغالب. أدب العبيد : عبيد الطغيان ، او عبيد الشهوات . وحين تستذل النفس البشرية لطاغية من طغاة الأرض ، او لشهوة من شهوات الجسد ؛ فإنها تعجز عن التحليق في جو الحرية الطليق ، وتلصق بتراب الأرض ، وترتكس في وحل المستنقع : مستنقع الشهوة ، او مستنقع العبودية سواء .

فأدب الانحلال على هذا هو أدب العبودية ، وهو لا يروج إلا حين تفرغ الشعوب من الرغبة او من القدرة على الكفاح في سبيل مثل أعلى ، مثل أرفع من شهوة الجسد ، وأعلى من تملق الطغيان ، لتحقيق مطمع صغير ، او مطمح حقير ... أي عندما

تصبح « الدنيا سيجارة وكاس » او تصبح الحظوة عند الطغاة أمنية المتمني في دنيا الناس !

عندئذ يظهر في الأمة كتّاب ، ويظهر في الأمة شعراء ، ويظهر في الأمة فنانون .. يلبون هذا الفراغ من المثل العليا ، ويمثلون هذا الارتكاس في حمأة الشهوة او حمأة العبودية . وعندئذ يستمع الناس الى هؤلاء الكتاب والشعراء والفنانين . لأنهم يصورون مشاعرهم ، ويصورون أحلامهم ، ويزينون لهم الراحة من الكفاح ، والاطمئنان الى الدعة ، والإخلاد الى حياة الفراغ والترهل والانحلال .

إن هؤلاء الكتاب والشعراء والفنانين ليقومون حينئذ بمهمة تخدير الشعوب وتنويمها . سواء سبّحوا بحمد الطغاة ، او سبحوا بحمد الشهوات ، فأما حين يسبّحون بحمد الطغاة فهم يزيفون الواقع على الشعوب ، ويخفون عنها شناعة الطغيان وقبحه ، ويصدون عن الثورة عليه او الوقوف في وجهه .. وأما حين يسبحون بحمد الشهوات ، فهم يخدرون مشاعر الشعوب ، ويستنفدون طاقتها في الرجس والدنس ، ويدغدغون غرائزها فتظل مشغولة بهذه الدغدغة ، لا تفكر في شأن عام ، ولا تحس بظلم واقع ، ولا تنتفض في وجه طاغية لتناديه : مكانك فنحن هنا ! فالشعب المستغرق في ذلك الخدر اللذيذ ليس هنا ، وليس كذلك هناك ؟

والتاريخ يشهد ؛ أن الطغيان يملي دائماً لهذا الصنف من الكتاب والشعراء والفنانين ، ويهيء لهم الوسائل ، ويخلق لهم

الجو الذي يسمح لهم بالعمل : جو الفراغ ، والترف، والانحلال.

عندما أراد الأمويون أن يأمنوا أهل الحجاز ، وأن يستبدوا دونهم بالملك ، وأن ينحـُّوهم عن الحياة العامة ، غمروا سادتهم واشرافهم بالمال والإقطاعيات والهبات ؛ وجلبوا اليهم المغنين ، والملهين والجواري ، وزينوا لهم حياة الدعة والترف . واطلقوا عليهم الشعراء المجـان يدغدغون غرائزهم في القصور بأناشيـد الشهوة . وفي الوقت ذاته انطلق الشعراء يمدحون الملوك الطغاة ويسبِّحون بحمدهم ، ويصوغون حولهم الهالات .

والتاريخ يعيد نفسه . وهكذا كان في حاضر الأوان .. كان في مصر طاغية صغير ؛ كان يعبد ذاته ، ويقدس شهواته . وكان يريد أن يحول هذا الشعب الى عشرين مليوناً من العبيد .

عندئذ انطلق كتاب وشعراء وفنـانون ، يسبحون بحمد الطاغية الصغير ، ويسجدون له من دون الله . ويخلعون عليه من صفات الله . سبحانه ! ما لا يجرؤ مسلم أو مسيحي عـلى النطق به ، حياء من الله .

وحينئذ انطلق كذلك كتاب وشعراء وفنانون ، يسبحون بحمد الشهوة ويعبدون اللذة ، وعندئـذ استمع الناس الى أغنيات تقول : « الدنيـا سيجارة وكاس » و « انسى الدنيا » وما الى ذلك من ادناس وأرجاس .

إن التسبيح بحمد الطاغية ، والتسبيح بحمد الشهوة ؛ لم يكونا منفصلين ، ولا غريباً أحدهما عن الآخر .. لقد كانت فـترة

الانحلال وأدب الانحلال. إنها العبودية ذات طبيعة واحدة: عبودية الشهوة ، أو عبودية الطغيان .

. . .

فإذا نحن أردنا أن نكافح أدب الانحلال ، فيجب أن نكافح أولاً أسبابه في حياة الأفراد أو حياة الشعوب . يجب أن نكافح روح العبودية في الضمير الإنساني ، نكافح عبودية الشهوة فنحرر الضمير البشري من الخضوع لها. فالإنسان انما صار إنساناً بتعاليه على ضرورات الحيوان . والتربية الدينية هي الطريق الأنجح والاقرب الى تقوية روح الإنسان ، وتساميه على ضرورات الحيوان .

ونكافح عبودية الطغيان . فالطغيان يحمل معه دائماً تشجيع الانحلال والدعة والترهل ؛ كي يبقى هو في أمان من انتفاض الكرامة ، وانبثاق الحرية ، والانتقاض على العسف والطغيان .

وشيء آخر نملكه اللحظة :

لقد عاد الذين كانوا يسبحون بحمد الطاغية الصغير ، ويعلون له في البغي والعدوان ، ويمجدون اسمه ويخلعون عليه من صفات الله الواحد القهار .. عاد هؤلاء هم بأنفسهم يلعنون الطاغية ، ويطلقون ألسنتهم فيه ، ويمزقون عنه أردية المجد الزائفة التي ألبسوه إياها .

هذا نفسه لون من ألوان الانحلال ، وصورة أخرى لأدب الانحلال . هؤلاء لم يخرجوا في الاولى أو الثانية عن أن يكونوا عبيداً منحلين . عبيداً يحنون ظهورهم لسوط السيد يلهب به

جلودهم ، فلما ان سقط السوط من يده – رغم أنفه – التقطه العبيد ، وداروا به يبحثون لهم عن سيد جديد !.. سيد جديد يلهب جلودهم بالسوط ، ليحرقوا له البخور ، وينثروا من حوله الزهور ! .

هؤلاء هم ممثلو أدب الانحلال . وهؤلاء هم الذين يجب أن يقصيهم الشعب عن الإنشاد له في العهد الجديد. عهد العزة والقوة والاستعلاء ، عهد التحرر من عبودية الطغيان ، والتحرر من عبودية الشهوة اللتين قد تجتمعان او تفترقان ، فتمهد إحداهما للأخرى ، وتهيء لها النفوس والأذهان .

أجل ينبغي ألا نسمح لهؤلاء العبيد بالانشاد للشعب في العهد الجديد ، ولا أن نغفر لهم تمريغ جبهة الادب والشعر والفن في المستنقع الآسن . فكل غفران لهؤلاء هو تنازل عن مبادىء الثورة الجديدة ، وكل استماع لهم هو خيانة للمثل الجديدة .

ولا يقل أحد : إنهم كانوا معذورين في تمريغ الادب والفن والشعر والإنسانية في ذلك الوحل ، فلقد كان باستطاعتهم أن يسكتوا ، إن لم تبلغ بهم الرجولة أن يكافحوا .

إن الاعتذار لهم على هذا النحو تبرير للجريمة ، التي يمكن اغتفارها للتجار لا لقادة الفكر وزعماء الأدب والكتاب والشعراء والفنانين .

إن من حق الثورة علينا ان نتذكر ولا ننسى . نتذكر شناعة الجريمة ، شناعة الانحلال الدنس .

إن الديدان والحشرات التي عاشت طويلاً في المستنقع كفيلة بتدنيس كل مقدس ، إذا نحن سمحنا لها بالحياة مرة أخرى في الأرض الطيبة ، التي يجب أن تخلو من الديدان والحشرات .

مواكب الفارغات ..!!

ترددتُ طويلاً ؛ قبل أن أنفق هذا الحيز من جريدة الدعوة ومن وقتي وقلمي ، في مثل هذا الموضوع الذي أتناوله اليوم . موضوع الحفنة الفارغة من النسوة المتشدقات !

إن في مصر من الويلات ، وفي مصر من الأزمات ، وفي مصر من الهموم ، ما يغني كل ذي قلم جاد ، عن ذلك العبث الفارغ الذي لا يتجاوز دغدغة الغرائز وتسلية الفارغين والفارغات !

إن حكاية المرأة والبرلمان – في الوقت الحاضر – حكاية يجوز أن تعرض في « صالة » او في « صالون » ولكنها لا يجوز أن تعرض في صحيفة محترمة ، ولا في مجتمع محترم ، ولا في وسط ناس لهم ما يشغلهم ، وليسوا في حاجة الى دغدغة غرائزهم في الطريق العام !

إنها حكاية لا تصغي لها المرأة في مصر ، ولا تفكر فيها ، ولا تهتم بها ، ولا تعرف عنها شيئاً . وإذا عرفتها ، فإن كل امرأة غير مبتذلة تنفر منها ومن القائمات بها ، ومن طريقة عرضها .

لقد ترددت طويلا ، لأنني أعرف سر هذه المواكب الفارغة. أعرف أن القائمات بها حفنة صغيرة قليلة العدد . وأعرف كيف تصل هذه الحفنة الى الحصول على أعمدة من بعض الصحف ... أعرف الوسيلة وأعرف الضريبة ، وأعرف أنه ليس كل امرأة في مصر تقبل هذه الوسيلة وتؤدي تلك الضريبة !

إن في الصحافة المصرية – مع الأسف – أصحاب صحف ومحررين ومندوبين ، يبيعون مصر ، ويبيعون كل مقدسات الحياة – إن كانوا يرون أن في الحياة مقدسات – في سبيل الحصول على تلك الضريبة ، التي أعرف كيف تؤديها مواكب الفارغات ، في سبيل الحصول على فراغ من تلك الصحف ، تثرن فيه ذلك الضجيج ، الذي لا يعني أحداً في الوقت الحاضر ، ولا تعيره المرأة الفاضلة في مصر أيّ انتباه .

لهذه كله ترددت ، لأن مواكب الفارغات لا تخادعني ، ولا تلقي في روعي أنها حركة خطيرة تستحق الاهتمام !

ولكنني مع الأسف أنظر فأرى رجالاً لهم مكانتهم ، ولهم وقارهم ، ولهم قيمتهم ، تخدعهم الضجة الزائفة ، فيحسبون وراءها خطراً ، وتجوز عليهم الحيلة ، فيحسبون أن القائمات بها كثرة ، وأنهنّ قوة ، وأن اهتمام بعض الصحف بتتبع أخبارهن دليل خطورة .. إنهم مع الأسف لا يعرفون كيف تسير الأمور داخل جدران هذه الصحف الكبيرة ! إنها قد تكون صحفاً ضخمة لامعة ، ولكن الذين يعرفون ما وراء

الستار يدركون ما وراء الضخامة والالتهاع . !

على أية حال ، لقد رأيت رجالاً كفضيلة المفتي الحالي وفضيلة المفتي السابق ؛ ورجال لجنة الإفتاء ، وجماعة كبار العلماء وأخيراً اتحاد الهيئات الإسلامية . رأيت هؤلاء الرجال الأفاضل الكبار يُخدعون ، فيحفلون مواكب الفارغات ، يجتمعون وينفضون ويصدرون الفتاوى والقرارات .

يا للأسف . لقد جازت الخدعة على هؤلاء الرجال الكبار .

إنه ما من شيء يبهج الفارغات مثل ما يبهجهن هذا الاهتمام البادي من اولئك الرجال الكبار . وما كانت هذه الحفنة الصغيرة القليلة العدد لتطمع – بل لتحلم – بمثل هذا النجاح الباهر ، الذي يهيئه لها رجال ما كان يجوز أن يلقوا لفتة واحدة تنم عن اهتمامهم بحركة ، لا ترمي الى أكثر من دغدغة الغرائز ، وإشباع شذوذ خاص .

إن هنالك مريضات كثيرات ومرضى كثيرين . وهنالك شواذ من هؤلاء وهؤلاء . فماذا على مصر أن تكون فيها حفنة من هؤلاء وهؤلاء . إن العيادات السيكولوجية أولى بالعناية بمثل هذه الحالات الشاذة . أما أن يشغل بها رجال لهم قيمتهم ، ولهم كرامتهم ولهم مشاغلهم ، لأن بعض الصحف ، أو بعض من يشتغلون في هذه الصحف ، يفسحون صفحات أو أعمدة لهذا الهذر الفارغ . فهذا هو ما كان ينبغي ألا يكون .

ولقد جربت جماعة كبار العلماء على وجه خاص ، ان إثارتها

لزوبعة ما حول أي عمل تافه ، يمنح هذا العمل قيمــة ليست له ويلفت الأنظار إليه ، ويسبب رد فعل عكسي على وجـــه التأكيد .. كم من حركات ، وكم من كتب ، وكم من شخصيات وهي من التفاهة والضآلة بحيث لا تستدعي كلمة . ولو تركت وشأنها تموت وتذوي دون أن يشعر بها أحد . ولكن الجماعة الموقرة منحتها الحياة ومنحتها الانتباه . وما أن تسكت الجماعة الموقرة عنها ، وتترك الضجيج حولها حتى تعود ثانيــة فتموت ، وينساها الناس ، لأنها لا تحمل عنصراً واحداً من عناصر البقاء.

إذن ما الذي يدفع هذه الجماعة الموقرة ، ويدفع سواها من الهيئات ، وسواها من الشخصيات ، ان تكرر التجربة ،لتحصل على نفس النتيجة ؟ إن اغفال هذه الحركات المصطنعة ، وهــذه الكتب التافهة ، وهذه الشخصيات الصغيرة ، هو وحده الاجراء الواجب للرد على هذه المحاولات .

إنني لأعرف حادثة معينة عن كتاب ، كانت تكمن وراءه عصابة من المبشرين ؛ على رأسهم رجل معروف بعدائه للاسلام ، يستر هذا العداء بتظاهره بإنكار الأديان كلها ، وإن كان يعمل في جمعية تبشيرية مشهورة ذات طابـع ديني ، ونشاط ديـني خــاص ...

أعرف أن هذه العصابة ظلت تجتمع وتنفض ، لتبحث عن خير وسيلة لإحداث فرقعة تلفت النظر الى هذا الكتاب ، الذي يؤدي لهذه العصابة غرضــاً خاصاً في تحطيم فكـرة الاسلام

الأساسية ؛ حتى اهتدت الى أن تدس على رجـل طيب القلب ، شديد الغيرة من يثير حماسته ضد هذا الكتـاب ، فيستصرخ جماعة كبار العلماء .

وظلت العصابة ورأسها المدبر ينتظرون هبّة الهيئـة حتى وقعت وكان ما كان !

وعلى هذه التجربة وعلى أمثالها تعتمد مواكب الفارغات . ولقد عاد الرجال الكبار فوقعوا في الفخ، وجاروا ذلك الضجيج المفتعل ، الذي لا يمثل من نساء مصر إلا هذه الحفنة من الشواذ!

إن هنالك آلافاً من النساء والفتيات المثقفات في مصر ... ولكن لهن خلقاً ولهن ديناً ولهن كرامة .. وواحدة من هؤلاء جميعاً لا تشترك في مواكب الفارغات ، ولا تقر الضرائب الـتي يؤدينها لينشرن عن أنفسهن في الصحف ، ولا ينظرن لهـذه الحركة المفتعلة إلا بالاحتقار والاشمئزاز .

وهذا ما كان ينبغي أن يعرفه من يشغلون أنفسهم بالاهتمام والرد على هذه التفاهات .

أم أن هؤلاء الرجال يخشون عـلى الاسلام ؟!

هه ! وان هنالك لأخطاراً أخرى حقيقية على هذا الاسلام،

وأن هنالك لمشكلات أخرى حقيقية يحفل بها الاسلام .. إنها مشكلات الملايين الذين يعيشون في هذا الوادي ، وفي العالم الاسلامي كله ، والعالم العربي بوجه خاص .. هنالك حياة هذه

الملايين التي لا يرضى عنها الاسلام . حياة الحرمـان والشظف والذل والهوان . الحياة التي لا تليق بإنسان يقول عنه ربه : — « ولقد كرمنا بني آدم » وما هو بكريم في أرض يرويها بدمه وعرقه فلا ينال منها إلا الحرمان !! وللإسلام في هذا كلمة يجب أن تقال . وهنالك مشكلات الاستعمار الذي يحول المسلمين من عزة الأحرار الى مهانة العبيد والله سبحانه يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . وهذا الاستعمار يجد من بيننـا رجالاً يطوعون مصالحنا لمصالحه ، ويربطون أقدارنا بعجلته ، ويطفئون أحقادنا عليه ، ويريدوننا على أن نهادنه ونطمئن إليـه .. وللاسلام في هذا كلمة يجب أن تقال .

وهنالك وهنالك كثير ، مما هو أخطر على الاسلام والمسلمين من قيام شرذمة من الشواذ المريضات والشواذ المرضى ، بمواكب فارغة ، لا يسندها أحد ، ولا تعبر عن رأي أحد ، ولا خوف منها لو تركت وشأنها تخفت وتنزوي وتموت وفقـاً لطبائـع الاشياء .

نعم أنا أعرف أن وراء بعض هذه الحركات جماعات تبشيرية ، وأن وراء بعضها أقلام المخابرات الأجنبية ، وأن أموال أقلام المخابرات تساعد بعضها ، ووساطات أقلام المخابرات تفسح لبعضها في بعض الصحف التي تعمل لحساب أقلام المخابرات .

أعرف هذا . ولكنني أعرف كذلك أنها حركات جانبية ، يراد بها صرف النظر عن الجبهات الحقيقية للكفاح .. فاذا نحن

شغلنا بهذه الحركات الجانبية فقد مكنا للمؤامرة أن تفلح ، وكنا من السذاجة والغفلة في الموضع الذي قدرتـــه مراكز التبشير ورسمته أقلام المخابرات .

فلندع مواكب الفارغات تموت من تلقـاء نفسها بالإهمال ، ولنواجه مشكلاتنا الحقيقية ، وهي مشكلات يحفل بها الإسلام وتحفل بها الحياة ، ويحفل بها الناس في هذه البلاد .

• • •

مبادىء العالم الحر!

« العالم الحر » اسم يطلقه الاستعماريون في انجلترا وفي فرنسا وفي أمريكا على تلك الكتلة الاستعمارية التي تكافح ضد الزمن، وتقاتل ضد الإنسانية، وتقاوم ضد الحرية. ثم تطلق على نفسها في النهاية اسم « العالم الحر » !

و « العالم الحر » مشغول في هذه الأيام بتمزيق إهاب « الحرية » في تونس ومراكش، وفي كينيا، وفي فيتنام .. وفي كتم أنفاس « الأحرار » في كل مكان ؛ لأن رسالة العالم الحر هي أن يكون حراً في قتل الحرية حسبما يشاء !

و « العالم الحر » يرتكب من الجرائم ما يقشعر له ضمير البشرية. وذلك رغبة في نقل مبادىء الحضارة الغربية الى القارة المظلمة. وإذا كانت هذه القارة لا تريد أن تتحضر على يد البعثات التبشرية، فلتتحضر إذن بالسيف والمدفع والطيارة والدبابة ؛ وهي أقدر ولا شك على نقل مبادىء الحضارة الى الشعوب المتخلفة !

و « العالم الحر » يشرد الشعوب من ديارها — على نحو ما فعل في فلسطين — وذلك رغبة منه في إيجاد « لاجئين » يتولى

رعايتهم والعطف عليهم ، وإقامة الخيام لهم في العراء . فمبادىء العالم الحر تقتضي العطف على المشردين ، الذين لا وطن لهم في هذه الأرض المعذبة !

و « العالم الحر » يتساند ويتكاتف في هذه المهام الضخام . أليس الدولار هو الذي يشد من أزر فرنسا في تونس ومراكش وفيتنام ، ويشد من أزر انجلترا في كينيا ومصر وفي كل مكان ، ويشتري الصحف والأقلام والجماعات والجمعيات والرجال والنساء في هذه الأيام ؟!

وأنا لا أعيب على « العالم الحر » أن يمزق إهاب الحرية ، ويمثل بجثث الضحايا من الأحرار ، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ في القرى الآمنة ، ويرتكب الجرائم الوحشية التي يرتكبها بلا تحرج .. فإن هدفه السامي من وراء ذلك كله واضح – كما قلت – وهو نقل مبادىء الحضارة الغربية بطريقة عملية الى الشعوب المتأخرة ، التي لا يجوز أن تظل متأخرة !

إنني لا أعيب على هذا « العالم الحر » حريته هذه ، حرية وحوش الغابة في أن تصنع في الغابة ما يؤهلها له الظفر والناب . فمبادىء الحضارة الغربية هي هذه كما كانت ، وكما هي كائنة ، وكما ستكون ، حتى يأذن الله لها بالفناء .

كلا ! إنما أنا أتلفت الى شعوبنا وحكوماتنا ، ومفكرينا وكتّابنا وشعرائنا ، وجماعاتنا وجمعياتنا . أتلفت إليهم لأرى هل سكتت الأبواق التي تهتف بحمد الحضارة الغربية ؟ هل

خرست الألسنة التي تتحدث عن الصداقة الاميركية والصداقة الإنجليزية والصداقة الفرنسية ؟ هل انزوت الجماعات والجمعيات التي تحمل ألوية الصداقة مع « العالم الحر » ، وتشيد بجهوده في الخدمات الاجتماعية ، والتعليم الأساسي ، واليونسكو ، والنقطة الرابعة، وسائر الوسائل الاستعمارية الحديثة التي تنخر في صخرة المقاومة الشعبية .

أتلفتُ لأرى هذه الأبواق لا تزال مفتوحة ، ولأرى هذه الالسنة ما تزال طليقة، ولأرى هذه الجمعيات والجماعات ما تزال تتبجح وتعلن عن نفسها بلا حساب ، وتنفق الاموال الضخمة في هذا الإعلان ، والدولار من خلفها يمكن لها من العمل ، ويمكن لها من الإعلان !

إن « العالم الحر » لا يحاربنا بالمدفع والدبابة إلا في فترات محدودة ، ولكنه يحاربنا بالالسنة والاقلام ، ويحاربنا بالمنشآت البريئة في مركز التعليم الاساسي ، وفي هيئة اليونسكو ، وفي النقطة الرابعة ، ويحاربنا بتلك الجمعيات والجماعات التي ينشئها وينفخ فيها ، ويسندها ويمكن لها في المراكز الحساسة في بلادنا . وأخيراً فإنه يحاربنا بأموال أقلام المخابرات التي تشتري الصحف والاقلام وتشتري الهيئات والجماعات .

وواجبنا نحن أن نكافح ، واجبنا أن نكافح الوسائل الاستعمارية الحديثة ، ونكافح الهيئات والجماعات والمؤسسات التي تيسر العمل لهذه الوسائل ، مهما كانت اسماؤها بريئة .

ان الاستعمار الروحي والفكري هو الاستعمار الخطير حقاً. فاستعمار الحديد والنار يثير المقاومة بطبيعته ، ويورث الاحقاد القومية التي تقتلع الاستعمار من أساسه . أما الاستعمار الروحي والفكري فهو استعمار ناعم لين ، مخدر ، ينوم الشعوب ، ويستل أحقادها المقدسة التي يجب أن تتأجج ، وتستحيل ناراً وشواظاً يحرق ويدمر الاستعمار وعملاءه في يوم من الأيام .

لقد قام بيننا في وقت من الأوقات رجل يسمى « امين عثمان » يحمل لواء الصداقة الانجليزية في فجور وتبجح ، ويؤسس جمعية نادي العلمين . كما قامت في ظله « جماعة اخوان الحرية » . ولقد هرعت الشخصيات الكبيرة يومها الى أمين عثمان وجمعيته . الشخصيات المستوزرة التي تشم رائحة الحكم من عشرات الأميال ولكن حاسة الشعب السليمة ظلت تنفر من الرجل وجماعته على الرغم من انضمام « الشخصيات الكبيرة » ، لأن الشعب يعرف قيمة هذه الشخصيات ودوافعها !

واليوم يقوم رجل آخر بدور أمين عثمان ، يقوم به في محيط آخر وتحت عنوان آخر . وتهرع الشخصيات الكبيرة ذاتها الى الانضمام اليه . وما من شك في ان الأمة بحاستها السليمة ستظل في معزل عن المحاولة الجديدة . ولكن الاطمئنان الى حاسة الأمة لا يجوز أن يقعد بالشباب الواعي عن التنبيه الى هذا الخطر الجديد ، والى التحذير من وسائله الناعمة وعنوانه البريء .

إن الحرب المقدسة مع الاستعمار اليوم ؛ تقتضي تخليص ضمائر

الشعوب أولاً من الاستعمار الروحي والفكري ، وتحطيم الأجهزة التي تقوم بعملية التخدير ، والحذر من كل لسان ومن كل قلم ومن كل جمعية أو جماعة تهادن معسكراً من معسكرات الاستعمار ، التي ترتبط جميعها بمصلحة واحدة ، ومبادىء واحدة : مبادىء العالم الحر ، ومصالح العالم الحر !



في الغرب يقوم « العالم الحر »،وفي الشرق تقوم«الديمقراطيات الشعبية » ونصيب هذه الديمقراطيات من اسمها كنصيب العالم الحر من اسمه سواء بسواء !

فالديمقراطيات الشعبية ؛ هي الديمقراطيات التي تحكم حكماً ديكتاتورياً مباشراً ، تحرسه الجاسوسية الرهيبة ، ولا تسمح لفرد من الشعب فضلاً عن الشعب كله أن يفكر بحرية ، ولا أن يفكر في الحرية ذاتها بحال !

وإذا كان للعالم الحر أجهزته وأقلامه وألسنته ، فإن للديمقراطية الشعبية أجهزتها وأقلامها وألسنتها . وكلها تعمل في محيطنا العربي والإسلامي . وكلها تستحق منا المكافحة كما نكافح الاستعمار . إلا أن الاستعمار يجثم على صدورنا اليوم ويخنق أنفاسنا بعنف . والواجب يقتضينا أن نوجه المقاومة الإيجابية للاستعمار ، والمقاومة الفكرية للديمقراطية الشعبية !

والراية التي تجمعنا لنكافح ... هي وحدها راية الاسلام .

إن بعضنا يؤثرون أن يتجمعوا تحت الراية العربية ، وأنا

لا أعارض في أن يكون هذا تجمعاً وقتياً يهدف الى تجمع أكبر منه ، فليس هناك تعارض جدي بين القومية العربية والوطنية الاسلامية ؛ إذا نحن فهمنا القومية العربية عل أنها خطوة في الطريق. إن أرض العرب كلها جزء من أرض الاسلام ، فاذانحن حررنا الأرض العربية فأننا نكون قد حررنا بضعة من جسم الوطن الاسلامي ، تستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير .

والمهم أن نتجمع اليوم ونتساند كما يتساند العالم الحر ضدنا . فكل بلد صغير لا يستطيع وحده أن يكافح عالماً . والسياسة القصيرة النظر التي تريد أن تحصرنا في حدودنا الجغرافية المصطنعة هي سياسة حمقاء ، فالعالم يسير نحو التكتل في الشرق والغرب سواء ، ومن واجبنا أن نتكتل على الأقل تمشياً مع منطق العصر ، إن لم يكن تمشياً مع منطق الاسلام .

والمجموعة الآسيوية الأفريقية تحاول أن تكون كتلة محايدة. ولا ضير من السير معها ، وإن كنت أنا شخصياً لا أرى أن هنالك مقومات حقيقية ودائمة لقيامها . فهنالك تيارات مختلفة تتجاذبها . والمصالح التي تربط بينها اليوم مصالح مؤقتة . أما الكتلة التي يمكن ان تقوم على أسس حقيقية وعميقة ودائمة فهي الكتلة الاسلامية ، وهي آتية لا ريب فيها ، على الرغم من جهود « العالم الحر » وجهود « الديمقراطيات الشعبية » فلنعجل بقيامها فهي سندنا الحقيقي الوحيد .

مشكلاتنا في ضوء الإسلام

كتب الكاتب الكبير الاستاذ « سيد قطب » في مقاله « مبادىء العالم الحر » في عدد مضى من « الرسالة » يقول : «إن بعضنا يؤثرون أن يتجمعوا تحت الراية العربية.. وأنا لا اعارض في أن يكون هذا تجمعاً وقتياً يهدف الى تجمع أكبر منه ، فليس هناك تعارض جدي بين القومية العربية والوطنية الاسلامية إذا نحن فهمنا القومية على أنها خطوة في الطريق » .

ولكن هل يفهم « القوميون » القومية على أنها خطوة في الطريق ، طريق الوحدة « الاسلامية » الكبرى ؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن نوجهه الى أنفسنا ، وهو السؤال المهم في الموضوع .

الواقع أن « القوميين » لا يفهمون القومية هذا الفهم ، ولا يعملون لها على هذا الاساس ، عندما يسعون ليمكنوا لها في عقول الشباب وقلوبهم ، وليجعلوها قوة سياسية تتحكم بمصاير البلاد العربية .

فالاستاذ ساطع الحصري – وهو أبرز مفكري القومية

العربية – يقول في كتابه « العروبة بين مؤيديها ومعارضيها » ما معناه : (إذ ليس الكتاب تحت يدي الآن لانقل عنه كلامه بالنص) : ان الذي نفـّر « انطون سعاده [1] » من « العروبة » وجعله يفهم منها النكوص الى الوراء والبداوة والهمجية والعصبية الطائفية ، إنما هو اقتران العروبة في ذهنه بالإسلام ! .. ولو أنه عرف أن « العروبة » شيء منفصل عن الإسلام غير مرتبط به لما حمل عليها هذه الحملة ولا أتهمها بالرجعية والبداوة والتأخر والتعصب !

هذا هو مؤدى كلام الاستاذ « الحصري » وأن لم يكن هو نصه الحرفي .

وهو كلام يعبر عن عقيدة أكثر « القوميين » وكم قرأت لبعض قادة « أحزابهم » : أن الاسلام لبى حاجة العرب في زمان معين ومكان معين ، وقد اختلف الزمان وتبدل المكان ، فلا يجوز أن نحبس « الطاقة » العربية في عقائد وفي قيم ونظم كانت ملائمة لسكان جزيرة العرب وما حولها قبل أكثر من عشرة قرون ، أي قبل أن تتسع للناس رقعة الدنيا بما كشف منها ، وقبل أن يتقدم بالناس الفكر والعلم والحضارة .

---

(١) هو منشىء الحزب القومي السوري ، وواضع مبادئه ، ومنها : « سوريا للسوريين والسوريون أمة تامة » يريد أنهم ليسوا جزءاً من الأمة العربية فلا يقبل بمبدأ الوحدة العربية بل يرفضه وينعي على ما يسمونه « العروبة » .

فالقوميون إذن لا يفهمون « القومية العربية » الفهم الذي يشترطه الكاتب الكبير ، فلا يمكن بالتالي أن تكون قوميتهم خطوة في الطريق .

والاستاذ « سيد قطب » يقول : « إن أرض العرب كلها جزء من أرض الاسلام ، فاذا نحن حررنا الارض العربية فإننا نكون قد حررنا بضعة من جسم الوطن الاسلامي ، نستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير » .

وهذا القول حق عندما نحرر « الارض العربية » باسم « الاسلام » ، وعندما نقيم فيها على أسسه البناء. اما اذا حررناها باسم « القومية » وأقمنا فيها البناء على غير الاسس « الاسلامية » على « الالحاد » — إن جاز أن يقوم على الالحاد بناء ! — وعلى هذه النظريات الدخيلة التي يدعو إليها الداعون هذه الايام .. فإننا لن نكون أبداً قد حررنا « بضعة من جسم الوطن الاسلامي نستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير » ؛ بل نكون قد أخذنا على أنفسنا سبيل هذا التحرير ، وبدأنا بمقدمات لا تؤدي إلا الى عكس المنشود .

يجب أن يكون تصورنا « تاماً » لهدفنا البعيد منذ البدء ليكون طريقنا عليه مستقيما لا نضل عنه ولا نجور .

يجب أن تكون في ضمائرنا « الوحدة الاسلامية » ونحن نعمل لتحقيق « الوحدة العربية » على أنها خطوة في الطريق .

وعندما نعمل لتحقيق « الوحدة العربية » و « الوحدة الاسلامية » من بعد أو من قبل ، يجب أن يشخص أبداً في ضمائرنا ويتمثل لأنظارنا ويستولي على تفكيرنا ويسيطر على أعمالنا هدفنا الأبعد وهو « التمكين لرسالتنا الاسلامية » نحقق للناس بها الخير في الأرض ، ونستنزل لهم بها الرحمة من السماء .

محمد عاصم

بلا تعليق

إن النص الذي نقله الأخ محمد عاصم من كلام « ساطع الحصري » ليصور به فكرة دعاة القومية العربية — ان كان كما نقله — فهو لا يحتاج الى تعليق .. إنه يكشف عن جهل عميق بكل شيء ، سواء عن الاسلام أو عن العروبة . ومن العبث أن نقف لنناقش مثل هذا المستوى من الجهالة . والذين يفقهون الأوليات من الاسلام أو من العروبة يرون — كما رأيت — أن الأمة العربية ليست سوى بضعة من جسم الوطن الاسلامي ، ولن تكون إلا كذلك في يوم من الأيام ، على الرغم من هذه الفقاعات التي تظهر بين الحين والحين !!

سيد قطب

الإسلام والاستعمار

في الجزائر يعتبر تعليم اللغة العربية والدين جريمة يقبض على فاعلها كما يقبض على اللصوص وقطّاع الطريق ، وينادى عليه في قفص الاتهام معهم ، ويحشر كذلك معهم في سجن واحد !

وفرنسا – كما يقول كتّابنا المائعون – هي أم الحرية ، وهي التي علّمت العالم كله مبادىء الحرية والإخاء والمساواة !

وفي جنوب السودان يعتبر وجود مسلم واحد – ولو كان ذاهباً للتجارة – خطراً عظيماً تجند له بريطانيا قواتها ، وترصد له الادارة في السودان جهودها ، ويقبض عليه ليرد الى الشمال ، كي لا يقع الأهالي المسالمون فريسة للاسلام ! ذلك بينما تعبأ كل قوى الادارة هناك لحماية التبشير والمبشرين ، ومنحهم التسهيلات من كافة الانواع !

وانجلترا – كما يقول كتابنا الخونة – هي الدولة التي لا تتدخل في الحرية الدينية .

ومن وراء الاستعمار البريطاني والفرنسي ؛ تقف اميركا بدولاراتها وطياراتها ودباباتها وقنابلها الذرية ؛ تحمي الاستعمار

في كل مكان ، وترد له هيبته الضائعة ، وتقتل المواطنين الأحرار الذين يدافعون عن بلادهم ، وتخذل قضايا الحرية في هيئة الامم المتحدة ، وفي مجلس الامن الدولي .

وأمريكا – كما يقول كتابنا المرتزقون – هي حامية الحرية « في العالم الحر » الذي يتحدثون عنه ولا يعرف العالم له وجوداً.

إن الاستعمار يرصد للشعوب التي تطلب الحرية كل قواه ، ولكنه يختص الاسلام وبلاد الاسلام بعناية فائقة منذ عهد بعيد . ولقد كان يختص الاسلام بعنايته حتى قبل أن تهبّ الشعوب الاسلامية لتطالب بحرياتها المسلوبة. وذلك أن الاستعمار لم يغفل لحظة واحدة عن القوة الكامنة في العقيدة الاسلامية ، وعن خطر هذه القوة على كل استعمار أجنبي .

إن خطر القوة الكامنة في العقيدة على الاستعمار ينبع أولاً ، من أن الإسلام قوة تحريرية هائلة ، وروحه تأبى كل اعتداء على الحرية ، وتقاوم هذا الاعتداء بصلابة : تقاومه مقاومة إيجابية تهون في سبيلها الارواح ، ويهون فيها البذل والتضحية . فإذا ما استيقظت روح الإسلام في أمة فمن المحال أن تتخلى عن حريتها ، ومن المحال أن تسكت عن الصراع الإيجابي ، الذي يحطم قواعد الاستعمار تحطيما .

كذلك ينبع الخطر على الاستعمار في العقيدة الاسلامية ، من أنها عقيدة استعلاء واعتزاز وكبرياء . فالمسلم حين تستيقظ فيه روح الاسلام ، لا يطيق أن يعلو عليه أحد ، ولا يطيق أن

يذل لاحد ، ومن ثم ينظر الى الاستعمار الاجنبي نظرتــه الى المنكر الذي تتحتم ازالته ، ويتحتم كفـاحه ، تحقيقـاً لعزة الإسلام ، وصيانة لكرامة المسلمين ، وابتغاء لمرضاة الله .

وثمة منبع ثالث للخطر على الاستعمار من العقيدة الاسلامية. أنها عقيدة تجعل من الوطن الاسلامي كله وحدة : من اعتــدى على شبر منها فقد اعتدى عليها جميعاً . وعندئــذ يتحتم على كل مسلم في أطراف الارض كلها أن يعلن الجهاد لرد الخطر عن ذلك الشبر الواحد من تلك الرقعة الاسلامية العريضة .

وما من مسلم في أقصى الارض ، ما من مسلم حق ، يسمع أو يعلم أن عدواً داس على شبر من أرض الاسلام ثم لا ينــدب نفسه للذود عن أرض المسلمين وكرامة المسلمين .

وهنا يكمن الخطر الاكبر على الاستعمار ، خطر التجمــع والتكتل تحت لواء واحد للمقاومة والكفاح ، بروح التضحيــة والفداء .

ومن هنا كان الاستعمار — وما يزال — يخص الرقعة الاسلامية بعناية خاصة ، تتساند الدول الاستعمارية كلها في كفاح كل حركة من حركات التحرير في العالم الاسلامي . ثم تنضم روســيا السوفياتية وكتلتها الى دول الاستعمار الغربي ، كلمــا كانت القضية قضية قطر مسلم ، على ما بينها وبين الكتلة الغربية من شقاق وعداء .

إن روسيا السوفياتية وكتلتها الشيوعية ، سارقــة للوطن

الاسلامي في التركستان ، والقرم ، ويوغسلافيا وما إليها . شأنها شأن الكتلة الغربية في الشمال الافريقي ووادي النيل ، ومن ثم فإن مصلحة اللصوص تلتقي كلما كانت القضية قضيـــة قطر اسلامي ، ثم تفترق بعد ذلك ، فتبلـغ حد الحرب البـاردة أو الحارة عند الاقتضاء .

وعلى الرغم من أن الكتلة الشيوعية تناصب المسلمين العداء ، شأنها شأن الكتلة الغربية على السواء ، فان الوطن الاسلامي بحكم روح التحرير الكامنة في الاسلام ، يحب لكل حركات التحرير – ولو كانت شيوعية كحركة فيتنام وحركة كورية – ان تنتصر على الاستعمار الغربي البغيض ؛ وأن يتقلص ظل الاستعمار الاسود من الارض كلها ، لأن الإسلام بوصفه أكبر ثورة تحريرية .

وكل ما يريده الإسلام في الارض ، أن تترك للناس حرياتهم كذلك من ناحية حرية الدعوة وحرية العقيـدة . لذلك هو يخاصم النظام الشيوعي القائم ، الذي يحرم الناس حرية التفكير ، وحرية الاعتقاد وحرية الدعوة الى العقيدة التي يريدون. وبذلك يحرمهم أخص خصائص الإنسانية الـتي يحرص الاسلام عـلى تحقيقها ، ويهدرها النظام الشيوعي القائم كل الإهدار .

على أية حال نعود الى الاستعمار ، فهو عدونا الأول ، عدونا الواقعي الذي يجب أن نتوجه إليه بأحقادنا المقدسة ، وأن نكافحه بلا هوادة ، لأنه هو يكافحنا بلا هوادة ، ويرصد لنـا

من قواه ما لا يرصده للشيوعية ذاتها وهي عدوته الظاهرة .

وهو لا يرصد لنا قوة الحديد والنار وحدها ، بل إنه يضع لنا الفخاخ الاقتصادية ، على نحو ما تحاوله أمريكا في هـذه الايام من عقد المعاهدة التجارية الرهيبة ، التي عرضتها في العهد الماضي ، ثم عادت اليوم تحاولها من جديد .

وهي المعاهدة التي تحتم علينا قبول البضائع المستوردة من أي بلد من بلاد العالم ، ما دامت تحمل الشعار الامريكي .. أي أن المصانع الامريكية في اسرائيل تغزونا في عقر دارنا ونحن لا نملك لها رداً .. وكذلك تغل يدنا عن الاحتفاظ بالعملة الـتي نريد الاحتفاظ بها ، لانها تبيح للشركات الامريكيـة وللرعايا الامريكان في مصر أن يخرجوا نقودهم بأية عملة كما يشاءون .

وذلك كله في مقابل أن يكون لنا — نحن المصريـين — حقوق مماثلة في الارض الامريكية .

أي والله . مقابل أن تكون لنا في أمريكا شركات ومصانع وموظفون وأموال .. وأن نستمتع بالحريات والضمانات الـتي يتمتع بها الرعايا الامريكان في بلادنا .. تماماً كما كان لنـا حتى استخدام الموانىء والمطارات وطرق المواصلات في قلب انجلترا بحكم معاهدة الشرف والاستقلال في يوم من الايام . لولا أننـا — لسوء الحظ — قد الغينا هذه المعاهدة ! ومن يومها وأساطيلنا البحرية والجوية في أوروبا لا تجد لها مرسى ، لاننا قد فقدنا حق استخدام المطارات والموانىء الانجليزية ..

ونحن على يقين أن العهد الجديد لن يقبل هذا الفخ الامريكي الرهيب ، لأن العهد القديم على كل ما كان فيه من تلوث لم يستطع احتمال هذه التبعة الثقيلة . ولكن هذا اليقين لا يجوز أن يقعدنا عن التنبيه الى مثل ذلك الخطر ، وبخاصة ونحن نعلم أن الإستعمار يستعين دائماً بالاجهزة الداخلية التي تتألف من جمعيات وشخصيات تحمل في الغالب طابعاً بريئاً .

ولقد عرفنا من قبل أمثال جماعة اخوان الحرية والجمعية المصرية الانجليزية ، وجمعية نادي العلمين وجمعية نادي الجزيرة . وعلينا اليوم أن نعرف أن جمعية الفلاح ليست إلا واحدة من هذه الجمعيات البريئة .

. . .

فرنسا أمّ الحرّيّة !

هذه هي فرنسا .. أمّ الحرية .. كما يقول العبيد الكثيرون المنتشرون في مصر والشرق العربي!

هذه هي فرنسا بلا تزويق ولا تنميق . فرنسا كما هي بدون هالات مزورة ولا دعايات براقة . فرنسا كما تصفها أعمالها ، لا كما تصفها الأقلام الخائنة ، والالسنة الخادعة ، أقلام العبيد ، وألسنة العبيد ، المنتشرين في مصر والشرق العربي !

هذه هي فرنسا . . عصابة من قطّاع الطرق . . عصابة متبربرة متوحشة ، تترصد للزعماء السياسيين فتقتلهم غيلة وغدراً ، وتمثل بجثثهم في نذالة وخسة .. ثم تقف لتتبجح على ملأ من الدنيا كلها : بأن هذه الجرائم مسألة داخلية لا يجوز أن يسألها أحد عنها !

هذه هي فرنسا تقف كاللبؤة ، فمها يقطر من دم الزعيم البطل «فرحات حشاد» ، والدنيا كلها ترقبها وهي تلغ في الدم ولكنها لا تخجل ، لأن فرنسا « الحرة ! » قد ضيعت دم الحياء ، وهي تلغ في دم الشهداء !

هذه هي فرنسا التي تهجَّد بذكراها، وسبَّح بحمدها وصلّى، رجال ممن يقال عنهم أو عن بعضهم أنهم من قادة الفكر !

ومنذ قرن وربع قرن، وفرنسا تمثل مسرحيتها الوحشية هذه على مسرح الشمال الإفريقي، منذ احتلالها للجزائر في عام ١٨٣٠. وفي خلال تمثيل هذه المسرحية البشعة كان العبيد ينشدون نشيدهم الدائم باسم فرنسا، فرنسا حامية الحرية ...

وفرنسا تكرم هؤلاء العبيد الذين يخدعون شعوبهم، ويخونون أوطانهم، ويخدّرون جماهيرهم، ويمسحون عن فم فرنسا القذر آثار الدماء ... ومن العجيب أننا نحن أيضاً كنا نكرمهم كلما كرمتهم فرنسا، ونرفع أقدارهم كلما رفعتها فرنسا، نهيء لهم المناصب والمراكز، التي تمكنهم من خدمة أمّهم فرنسا !

ونبحث اليوم عن هؤلاء العبيد، من قادة الفكر، نبحث عنهم ليقولوا كلمة واحدة عن الجريمة الوحشية الجديدة، فلا نجد لهم أثراً. لا يثور ضمير واحد منهم فيقول كلمة، ولا يرتعش قلب واحد منهم أمام الجثة المشوهة المعالم، جثة البطل الذي جبنت فرنسا عن مواجهته، فقتلته غيلة وغدراً !

. . .

إن جريمة فرنسا الجديدة هي جريمة الضمير الغربي كله. ففرنسا لا ترتكب جرائمها إلا وهي مسنودة الظهر بالمعسكر الغربي، لا ترتكبها إلا وهي تستند الى انجلترا والى أمريكا.

إن الضمير الغربي كله – بكل ما فيه من وحشية عميقة

الجذور – ليتمثل بوضوح في تلك الجريمة. إنها جريمة الديمقراطية، جريمة « العالم الحر » جريمة الحضارة التي يدعونا العبيد الكثيرون – المنتشرون في مصر والشرق العربي – من قادة الفكر أن نترك عقائدنا وتقاليدنا وتاريخنا وأمجادنا، لنلهث وراءها، كيما نرتقي ونتحضر، ونلحق بركب العالم المتحضر! العالم الذي يقتل الزعماء الوطنيين غيلة وغدراً، ويمثل بجثثهم في نذالة وخسة!

إن هذا الضمير الذي أوحى لفرنسا بأن تقتل الزعيم التونسي وتمثل بجثته، لهو ذات الضمير الذي أوحى الى انجلترا أن تلقي بالجرحى من الفدائيين في القنال الى الكلاب المتوحشة، لتنهشهم وهم بعد أحياء، لا يملكون دفعها عن أجسادهم لأنهم جرحى.

وهو ذاته الضمير الذي شاهدته بعيني في أمريكا، والبيض يتجمعون على شاب زنجي بمفرده، ليضربوه ويركلوه ويدهسوه بكعوب نعالهم حتى يخلطوا عظمه بلحمه، في الطريق العام، والبوليس لا يحضر أبداً إلا بعد إتمام الجريمة، وتفرق الجماهير المتوحشة الهائجة كوحوش الغابة.

إنه هو هو ضمير العالم المتحضر، العالم الذي تسبح بحمده أقلام خائنة، وألسنة خادعة، ومن هذه الاقلام أقلام قادة الفكر. ونحن ببلاهة منقطعة النظير نصفق للخونة ونهتف للخادعين، ونرفعهم مكاناً علياً.. ونهيء لهم المناصب والمراكز التي يتمكنون بها من تنفيذ جريمة الخداع والخيانة!

ولدينا في مصر والشرق من عبيد فرنسا من يقولون لنا : لا تكتبوا هكذا، لئلا نخسر صداقة فرنسا! ونحن - كمصريين - لا بد أن نلاحظ مصالحنا القومية، وألا نندفع مع حماسة العاطفة!

إلى هؤلاء العبيد أوجه سؤالي : متى كانت فرنسا صديقتنا ؟ متى وقفت في صفنا مرة واحدة في التاريخ كله ؟ وفي أي مظهر من المظاهر تمثلت لنا صداقة فرنسا ؟

فرنسا هي التي قادت الحملات الصليبية على الشرق العربي منذ تسعة قرون، وكانت جيوشها الصليبية أشدّ جيوش الصليبيين ضراوة وإجراماً وفتكاً.

وفرنسا هي التي خانت مصر في قناة السويس، فاستغفلت « محمد سعيد » والي مصر بطبق من « الماكرونة »، بواسطة ديلسبس المحتال الذي تحتفظ مصر بتمثاله على مدخل قناة السويس، الى هذه اللحظة. وسرقت ملكية القناة من مصر، وقد أنشأتها في أرضها بمالها وعمالها ونصيبها من الربح، وحقها في الإشراف. وهي تعمل اليوم جاهدة لإتمام سرقة القناة في نهاية مدة الامتياز بوسائل شتى.

وفرنسا هي التي خانت عرابي، ومهدت للإحتلال الإنجليزي ومعركة التل الكبير ما كانت لتقع لولا خيانة ديلسبس لعرابي، وما كانت الجيوش الإنجليزية بقادرة على هزيمة مصر في معارك تقع من الغرب في الدلتا. ولكن الخيانة الفرنسية قد آتت ثمارها، وما زلنا نعلك هذه الثمرة المرة حتى يومنا هذا..

وفرنسا هي التي قاومت كل المقاومة إلغاء الامتيازات في مؤتمر مونتريه . وعرقلت جهود مصر في إزالة آثارها النهائية . وكانت تعض على هذه الامتيازات بعنف ، فلا تدعها تفلت إلا بعد معارك حامية في المؤتمر لا نزال نذكرها .

وفرنسا هي التي وقفت تسند إنجلترا بعنف في مجلس الامن ضدنا ، وكان لسان مندوبها في المجلس هو أقسى الالسنة علينا ، وقد تجاوز حد الجدل السياسي الى الوقاحة والسباب والتهكم . وهذه محاضر مجلس الامن بخصوص قضية مصر القومية الكبرى تشهد بمدى صداقة فرنسا !

وفرنسا هي التي تحارب ثقافتنا ، وكتبنا وصحافتنا في الشمال الافريقي كله . ولقد عجز الدكتور طه حسين وهو في وزارة المعارف — وهو أصدق أصدقاء فرنسا — أن يفتتح معهداً لمصر في الجزائر ، أو حتى في طنجة التي تحكم دولياً ، بسبب تعصب صديقته الكبرى فرنسا !

وفرنسا هي التي تحارب جلاء الجيوش الإنجليزية الآن عن مصر ، وتكافح كل حركات التحرير لا في الشرق العربي وحده ، بل كذلك في جميع أطراف الدنيا — ومع هذا كله فإن فرنسا هي حامية الحرية الكبرى !

هذه هي صفحة « صداقة فرنسا » فأي سطر فيها هو الذي نخشى أن نشوهه أو نطمسه ، ومتى وأين وكيف كانت هذه الصداقة التي نخشى عليها ؟!

وبعد، فإن الكلمات لم تعد تجدي. إنه لا بد من إجراء يتخذه كل بلد عربي - بل كل بلد إسلامي - لكفاح فرنسا، وكفاح «العالم الاستعماري» الذي يسندها.

وأول إجراء في نظري يجب أن يتخذ هو إقصاء المسبّحين بحمد هذا العالم من حياتنا الفكرية والشعورية، إن لم يمكن إقصاؤهم من حياتنا السياسية والاقتصادية. لأن قوى الاستعمار تسندهم، وتمكن لهم من وظائف الدولة وفي الاسواق ودوائر الاعمال.

إنه لا بد أن نتحرر فكرياً وشعورياً من عبادة «العالم الحر»، العالم المتحضر، العالم الذي يغتال الزعماء ويمثل بجثثهم في نذالة، والذي يلقي بالجرحى الى الكلاب المتوحشة لتنهشها، والذي يتجمع كالوحوش الجائعة على شاب ملوّن فلا يتركه حتى والدماء الغزيرة تتفجر من فمه وأنفه ورأسه.

وحين تتحرر مشاعرنا من عبادة هذا العالم المتعفن، وحين تتجمع أحقادنا المقدسة ضد هذا العالم، حين نمسي ونصبح وهذه الاحقاد المقدسة تغلي في عروقنا.. حينئذ سنعرف كيف نتخلص من العبودية. إن عبودية الضمير هي التي تخضعنا. فلنتحرر منها أولاً، ولنخرس كل صوت، ولنكسر كل قلم يحدثنا حديث العبيد، العبيد الكثيرين المنتشرين في مصر والعالم العربي.

يالجراحات الوطن الإسلامي !

تمثل فرنسا على مسرح الشمال الافريقي في هذه الإيام أبشع مآسي « الرجل الابيض » ، حتى إذا تحركت الكتلة العربية الآسيوية لتحول بين فرنسا وبعض شناعاتها في هذه الرقعة من الارض ، وقف مسيو روبير شومان وزير الخارجية الفرنسية ينذر وزير الخارجية الامريكية ؛ بأن فرنسا سترفض التصديق على معاهدة الصلح الالمانية وتوقيع ميثاق الدفاع عن غرب أوروبا، كما ستنسحب من حلف الاطلنطي ، إذا أيّدت الولايات المتحدة التونسيين والمراكشيين في الامم المتحدة .

وحق لفرنسا أن تهدد أمريكا . فهي تعلم أن أمريكا غير جادة في نصرة قضية تونس ومراكش ، ولكنها تضحك على ذقون العرب والمسلمين ، حين تتظاهر بتأييدهم في قضاياهم ضد الاستعمار الاوروبي . ولو كانت جادة لوجدت الوسيلة ، فإن فرنسا وانجلترا تعيشان عالة على أمريكا. ولو أمسكت عنهما المدد لأفلستا. فهي تملك اذن ان تصنع شيئاً لو أرادت ، ولكنها لا تريد .

واللعبة الامريكية في موقفها هذا مكشوفة ، إنها تدع فرنسا تهدد وتخضع لهذا التهديد الوهمي ، الذي ما كانت فرنسا لتقدم

عليه لو أنها تعلم أن أمريكا صادقة النية . كذلك تستخدم دول أمريكا اللاتينية للغرض نفسه ، فتوحي اليها أن تعارض أي نص قاطع يؤكد حقوق التونسيين والمراكشيين في الاستقلال، ليكون ذلك تكأة لامريكا في التراجع !

وقد صرح رئيس الوفد الاندونيسي ، بأن أعضاء الكتلة العربية الآسيوية التي تعمل لوضع مشروع قرار بتشكيل لجنة معظم أعضائها منهم ، قد تخلوا عن الفكرة الاولى التي تقضي بأن يتضمن مشروع القرار فقرة تؤكد حقوق التونسيين والمراكشيين في الاستقلال ، وذلك خشية عدم تأييد دول أمريكا اللاتينية للقرار ، إذا قدم متضمناً هذه الفقرة.

ووراء هذا كله أمريكا . فقد صرح مستر فيليب جيسوب رئيس الوفد الامريكي في هيئة الامم : بأن الولايات المتحدة تحاول إقناع الكتلة العربية الآسيوية بعدم التطرف في عداء فرنسا ، وأنه « سعيد » لان أعضاء هذه الكتلة قد بدأوا يتراجعون عن موقف التطرف الشديد في عدائهم لفرنسا ! وقال كذلك ، إن الولايات المتحدة تريد أن يكون مشروع القرار الذي سيقدم الى الامم المتحدة معتدلاً بحيث يقتصر على مطالبة الفريقين باستئناف المفاوضات !.

هذه هي المأساة التي تمثل في هذه الايام ، على مسرح هيئة الامم بمعرفة أمريكا والاستعمار الاوروبي . ومع ذلك فنحن ببلاهة منقطعة النظير نقف لننتظر العون الامريكي الذي يخلصنا

من الاستعمار الاوروبي .

إننا ننسى ان العالم الاوروبي والعالم الأمريكي يقفان صفاً واحداً بازاء العالم الإسلامي . والروح الصليبية القديمة هي هي ما تزال . إننا ننسى هذا ، لأن فينا مغفلين كثيرين ومغرضين كثيرين يضللوننا ، وينشرون دعاية مغرضة عن رغبة أمريكا في إنصاف الشعوب المستعبدة ، ومساعدة الشعوب المتأخرة . ومع أننا ذقنا الويل من أمريكا في فلسطين ، فإن أجهزة الدعاية الأمريكية تعمل . و « جمعية الفلاح » تظهر في الميدان ، وتقوم بواجبها .

إن جراحات العالم الإسلامي تنبض بالدم في كل مكان ، وأمريكا واقفة تتفرج ، بل تساعد المستعمر الاوروبي القذر . ومع هذا توجد صحف ويوجد ناس : ناس مصريون ومسلمون ، يتسمون أحمد ، وحسين ، وحسن ، وعلي ... يتحدثون عن تمثال الحرية في ميناء نيويورك ، وعن فرنسا أم الحرية .

وأحياناً يسألك بعض المتخاذلين أو بعض المدسوسين : وماذا نملك أن نصنع ونحن ضعفاء ؟

ماذا نصنع ؟ إذا لم نستطع أن نحطم الكف التي تمتد إلينا بالسوء ، فلا يجوز أن نقبّلها ونحن نقبّل الكف التي تصفعنا .

إذا لم نستطع أن نصنع شيئاً ، فلنحتفظ على الاقل بأحقادنا المقدسة ، ولنورثها أبناءنا ، فقد يكونون في ظروف تمكّنهم من رد الجميل للرجل الابيض .

إن الرجل الابيض يدوسنا بقدميه ، بينما نحن نحدّث أولادنا في المدارس عن حضارته ، ومبادئه العالية ، ومثله السامية .

إننا نغرس في نفوس أبنائنا عاطفة الإعجاب والإحترام للسيد الذي يدوس كرامتنا ويستعبدنا .

فلنحاول أن نغرس بذور الكراهية والحقد والإنتقام في نفوس الملايين من أبنائنا ، ولنعلمهم منذ نعومة أظفارهم أن الرجل الأبيض هو عدو البشرية ، وأن عليهم أن يحطموه في أول فرصة تعرض، ولنكن واثقين أن الاستعمار الغربي سيرتجف حين يرانا نبذر هذه البذور .

إن هذا الاستعمار هو الذي حاول أن يغرس في نفوسنا حبه واحترامه . فلما خشي اليوم أن نستيقظ اخترع حكاية « اليونسكو » . ودعا هذا « اليونسكو » الى حذف كل ما يثير الإحقاد القومية في دراسة التاريخ ، وذلك بإسم الإنسانية والأخاء البشري .

وهذه لعبة استعمارية جديدة يجب أن ننتبه اليها . اننا إذا اتبعنا تعاليم اليونسكو فسنخدّر كل شعور قومي ناهض . ولن يستفيد من هذا التخدير سوى الاستعمار . وهذا ما تقصد اليه هيئة اليونسكو .

إن أوروبا وأمريكا دول مستعمرة ، فماذا عليها من حذف كل ما يثير الأحقاد القومية في دراسة التاريخ ؟ إنها تكسب بهذا ولا تخسر شيئاً . أما نحن فإن الاستعمار يخنقنا ، فإذا لم ننتبه

شعور الحقد عليه فقد خسرنا السلاح الأول وخسرنا المعركة كلها.

ومع هــــذا فإن عندنا مصريين مسلمين يتسمون : أحمد ، وحسين ، وحسن ، وعلي ، يعملون في مصر بإسم « اليونسكو » وينشرون الأضاليل ، ويخدعون أمتهم ويحاولون تنويمها بإسم الإخاء الإنساني !

إن جراحات الوطن الإسلامي دامية في كل مكان ، فلا أقل من أن نحتفظ بالكراهية والحقــد لمن يدميها . أمــا مبادىء اليونسكو الجميلة فنحن على استعداد لاعتناقها يوم يتقلص ظــل الاستعمار الأسود عن أوطاننا الدامية الجريحة .

لقد عرفنا نحن مبادىء الإخــاء الإنساني ، قبل اليونسكو بأربعة عشر قرناً . عرفناها وطبقناها على أنفسنا وعلى سوانا . ولم نجعلها خدعة ولا فخــاً ، كما يجعلها الرجــل الأبيض . فهذه المبادىء ليست جديدة علينا . ولكن ديننا الذي جاء مبكــراً جداً علـَّمنا كذلك أن نقاتل من يعتدي علينا ، وألا نأمن له ولا نستنيم ، وأن لا نسالم أحداً يعتدي عــلى شبر واحد من الوطن الإسلامي ، أو يناهض العقيدة الإسلامية ويؤذي معتنقيها:

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدِّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون[١] » .

---

(١) سورة الممتحنة ٩ .

والرجل الأبيض – سواء كان ذلك في أوروبا أو أمريكا أو روسيا – يقاتلنا في الدين « ويخرجنا من ديارنا » ويظاهر على إخراجنا. ومع هذا يوجد ناس مسلمون يتسمون: أحمد، وحسين، وحسن، وعلي.. يوالونهم، ويروجون دعايتهم، ويمكّنون لهم في رقابنا. ثم يحاولون أخيراً أن يخدّروا أحقادنا المقدسة، حتى هذه الأحقاد التي يجب أن نورثها أبناءنا على الأقل مع العار الذي سنورثه إياه، لو تركنا جراحات الوطن الإسلامي تدمى في كل مكان، ونحن لا نصنع شيئاً.

إن فرنسا تمزق جسم الوطن الإسلامي في تونس والجزائر ومراكش، وانجلترا تقوم بدورها في مواضع أخرى، وأمريكا من خلفها تبدو تارة وتتوارى... هذا ما يجب أن نذكره صباح مساء، وما يجب أن نلقنه أبناءنا بكرة وعشياً.

• • •

المسلمون متعصبون ...

– ١ –

الدعوة الى كتلة إسلامية تنقذ الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي الآثم ، وتقف في وجه موجة الإلحاد المادية القذرة . . هذه الدعوة يعدها بعضهم تعصباً دينياً يبرأون منه ، ويحاولون التنصل من تبعاته !

والوطن الإسلامي الذي يدعو الداعون الى إعادة وحدته واستعادة قوته ... هو الوطن الوحيد في تاريخ البشرية الذي كان التسامح الديني طابعه الأصيل ، والذي عامل الأقليات فيه بالروح الإنساني الخالص ، والذي حفظ لهذه الأقليات حقها في حرية العبادة وحرية الاعتقاد، وحرية الكسب، وحرية العمل، وسائر الحريات التي لا تعترف المجتمعات غير الإسلامية بها الى هذه اللحظة لبعض الملونين ، ولبعض أتباع الديانات المخالفة ، في كل مكان .

ومع ذلك كله فالمسلمون متعصبون !

فلتسمع الببغاوات التي تشفق من الدعوة الى الكتلة الإسلامية

ومن الدعوة الى النظم الإسلامية ، لتسمع هـذه الببغاوات شيئاً مما يصنع غير المسلمين بالمسلمين في كل مكان على ظهر هذه الأرض. في القرن العشرين ..

ولنبدأ بالحبشة . الحبشة جارتنا القريبة التي ألـّفنا اللجان لمعاونتها وأرسلنا البعثات الطبية اليها عندما غزاهـا الطليان في سنة ١٩٣٥ وخصصنا لهـا أشهراً كاملة في صحافتنا ، وعددنا قضيتها يومذاك قضيتنا . لنسمع ، ولتسمع الببغاوات ماذا يلقى المسلمون في الحبشة في هذا الزمان .

سافرت بعثة من الأزهر مؤلفة من الاستاذين الفـاضلين : عبد الله المشد ومحمود خليفة الاستاذين بكلية الشريعة الى بـلاد الصومال وأريتريا وعدن والحبشة لدراسة أحوال المسلمين بهـذه البلاد ، واستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر مـا بين يوم ٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٠ الموافق أول يونيو سنة ١٩٥١ ويوم ٢٩ مـن ذي القعدة الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٥١ وكتبت تقريراً مفصلاً يقع في مـائة وستين صفحة كبيرة ، يتسم بالدقة والاعتدال والواقعية .. ومع هذا فقد حوى ذلك التقرير عجباً عجاباً عن الاضطهاد الديني في القرن العشرين .

وهذه براعة الاستهلال :

«عقب انتهائنا من زيارة بورما من أعمال الصومال البريطاني، رأينا أن نواصل الرحـلة الى الحبشة نظراً لأن الميعاد المحـدد لدخولنا فيها قـد أوشك أن ينتهي ، فسافرنا يوم ٢٦ من يوليو

سنة ١٩٥١ بالسيارة الى جيجيجا وهي أول مدينة من مدن الحبشة في جنوبها الشرقي ، وتعتبر عاصمة الصومال الاوجاديني .

وبعد أن نزلنا الفندق ومكثنا فيه ساعة ونصف الساعة أمرنا بمبارحة المدينة ، ولم يسمح لنا بالإقامة ، فاضطررنا للعودة الى هرجيسة في مساء اليوم الذي دخلنا فيه ،ثم برحنا هرجيسا الى عدن ، ثم منها الى اسمرا . وبعد أن أقمنا عشرة أيام ، أُخطرنا من السفارة المصرية بأديس أبابا بأن وزارة خارجية أثيوبيا سمحت لنا من جديد بدخول الحبشة . فسافرنا بالطائرة الى أديس أبابا يوم الخميس ١٦ من اغسطس سنة ١٩٥١ ، وأقمنا بها اثني عشر يوماً ، حاولنا خلالها أن نقوم بزيارة معاهد التعليم في العاصمة والمدن الكبيرة ، وأن نتصل بالمسلمين ، فلم نستطع الى ذلك سبيلاً لأسباب خارجة عن أرادتنا .

ولم يمنعنا ذلك من الوقوف على كثير من شؤون المسلمين في الحشبة . وسنذكر بعض ما سيمكننا ذكره منها في هذا التقرير ، متوخين الحقائق التي يهم أولي الأمر الإطلاع عليها » .

ثم يمضي التقرير فيذكر هذه الحقيقة الغريبة التي لا يكاد يعرفها أحد ، وهي أن نسبة المسلمين في الحبشة بصفة عامة لا تقل عن ٦٥ في المائة من مجموع السكان ، وأنها ترتفع في بعض المناطق الى ٨٥ ٪ وتهبط في بعضها الى ٢٥ في المائة ، وهي في عمومها أغلبية أكيدة ، مع انقسام البقية من السكان الى مسيحيين ويهود ووثنيين .. ويعتمد التقرير في هذا على الاحصاء الإيطالي

الدقيق ، الذي قام به الإيطاليون في سنة ١٩٣٦ ، وإحصاءات القنصليات الاجنبية في الحبشة .. وهي حقيقة غريبة كما قلت ، ويزيدها غرابة ما سنعرفه من إهمال العنصر الإسلامي إهمالاً تاماً في الوظائف والتعليم والمعيشة وتجريده من سائر حقوق المواطنين!

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة :

أولاً : إن الحكومة الحبشية بعد انتهاء الاستعمار الإيطالي ، قد اغتصبت من المسلمين ثلثي أملاكهم العقارية وسلّمتها للمسيحيين من الرعايا ، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين ، حرصاً على إفقارهم وانحلالهم .

ثانياً : إن الحكومة الحبشية تمنح إرساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية ، في الوقت الذي تحرم فيه على المسلم أن ينتقل من محلته الى محلة أُخرى لإرشاد المسلمين ووعظهم وتقضي على كل محاولة ترمي الى ذلك ، وقد جاء في تقرير لهذه الإرساليات أنه يمكن تنصير جميع المسلمين في هذه المناطق خلال خمس سنوات نظراً لجهلهم وفقرهم ، وعدم وجود من يعلمهم دينهم ، أو يحثهم على التمسك بعقيدتهم .

ثالثاً — إن أكثر المسلمين في الحبشة اهتماماً بنشر علوم الدين ، هم مسلمو مقاطعات كفا — جيما — وللو وهرر ، وانه كان في جيما وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين ، ولكن بعد أن أُعلن ضمها الى الامبراطورية الحبشية ، واعتقل سلطانها الامير عبد الله بن السلطان محمود بن داود المشهور باسم أبا جعفر

وزج به في غيابة السجن .. استولت الحكومة الحبشية على هذه المدارس ثم أغلقت أكثرها ، وغيرت مناهج ما بقي منها ، ولم تجعل للغة العربية ولا للدين الإسلامي أثراً فيها .

رابعاً : إن السلطة الحبشية جاهدة في سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين في البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها ، وأنها انشأت لذلك حوالي مائتي مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات ، ليس بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة في المائة من مسلمي الحبشة ، الذين لم تجد الحكومة بداً من قبولهم لظروف خاصة .. وأنه على الرغم من زيادة عدد المسلمين عن المسيحيين لا تقوم الحكومة بالانفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة في المائة من ميزانية التعليم. هذا بالإضافة الى ان برنامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الإسلامي نصيب منها ، حتى في المناطق الإسلامية المحضة .

خامساً : إن المسلمين قد ألحوا على وزارة المعارف في هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الإسلامي ، واللغة العربية في المدارس التي بها . فعينت مدرسين في بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الإسلامي ، ورفضت طلب تدريس اللغة العربية ، واختارت مدرس الدين الإسلامي من بعض الجهلة الذين لا يدرون شيئاً من تعاليم الإسلام، ولم تحدد لحصة الدين زمناً خاصاً كغيرها من حصص الأمهرية ، والإنجليزية وسائر العلوم ، التي تعلّم في المدرسة بل كلفت مدرس الدين الإسلامي أن يجمع التلاميذ في

الاوقات المخصصة لراحتهم ليعلمهم فيها المبادىء التي لا تخرج عن أوقـات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها ، وما شاكل ذلك ، فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقـات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم ، ويمر العام كله دون أن يلقي عليهم درساً واحداً .

سادساً : إن الحكومة اختارت في العام المـاضي بعثات من المتخرجين في بعض المدارس ، وأوفدتها الى المعـاهد المختلفة في الخارج ليعودوا فيتولوا المناصب الكبيرة في الدولة ، وقـد كان من بين المبعوثين اثنان من المسلمين بحكم تفوقهما البارز ، ولكن بعد أن تمت إجراءات سفرهما حيل بينهما وبـين السفر لأسباب غير معروفة .

سابعاً : إنـه كان للمسلمين ثماني مدارس ، وكانت الدراسة فيها قائمة على أساس اللغة العربية والدين الإسلامي .. ومواردها تأتي من التبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض، وكانت تقوم بتعليم ثلاثة آلاف من أبنـاء المسلمين ، وقـد ظلت تؤدي مهمتها رغم جميع المتاعب الى سنة ١٩٤٩ .. ولكن الحكومـة أرادت إخضاعها لبرامجها الخالية من اللغة العربية والدين ، فلمـا رفض القائمون عليها هذا الأمر سلكت الحكومة مع هذه الجمعيات مسلكاً اضطر أعضاؤها بسببه الى التخـلي عن مساعدة هـذه المدارس والتنازل للمعارف عن ثلاث مدارس منهـا ، وعندئذ حذفت منها مادتي اللغة العربية والدين الإسلامي .

ثامناً : إن المدارس الباقية في طريقها الى هذا المصير البائس لأن الوسائل التي اتبعت بشأن المدارس الثلاث ماضية في طريقها، وقد تركت البعثة الحبشة ومدرسة رابعة تلاقي مصيرها !

تاسعاً : إن إحدى المدارس الباقية ، طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرسين المصريين بالحبشة ، أن يقوموا بتدريس بعض العلوم في أثناء فراغهم نظراً لحاجة المدرسة الى بعض المدرّسين الأكفاء ، ولكن المعارف الحبشية رفضت هذا الطلب.

عاشراً : إن الكتب العربية لا يسمح بدخولها الى أثيوبيا ، ولا تداولها ، أما الجرائد والمجلات العربية فيسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة .

هذه هي الحقاق المفجعة في القرن العشرين ، وهذه هي الأحوال التي يعيش في ظلها خمسة وستون في المائة من سكان الحبشة لا لسبب إلا أنهم مسلمون .

فإذا أضفنا اليها ما علمته عن ثقة من أن المسلمين محرومون من وظائف الدولة جميعاً في الحكومة الحبشية ، ومن الخدمة العسكرية كي لا يكون منهم جنود ، وأنهم الى عهد قريب جداً كان المدين المعسر منهم يصبح رقيقاً يباع ويشترى اذا كان دينه لمسيحي ، ولم تبطل هذه الشناعة إلا على يد الطليان عام ١٩٣٦ .

إذا عرفنا هذه الحقائق المفجعة تبين لنا بما لا مجال للشك فيه ، أن المسلمين متعصبون متعصبون !

أليس كذلك أيتها الببغاوات ! التي تخشى من تكتل المسلمين تحت راية الدين ؟

المسلمون متعصبون ...

- ٢ -

في رسالة لبعثة جريدة المصري في استانبول وردت هذه الفقرات :

ولا يشغل أذهان أقطاب تركيا سوى أمرين : أولهما تقوية أسباب التعاون العسكري بينها وبين جيرانها في أوروبا وآسيا . والثاني أن توجه سياستها الخارجية توجيهاً صحيحاً جديداً نحو العرب ، ولا سيما مصر ، بطريقة تجعل من محور أنقره — القاهرة أقوى الاحلاف العسكرية والسياسية في الشرق الأوسط إن لم يكن في العالم كله .

غير أن تركيا تنفر نفوراً شديداً من إنشاء كتلة عسكرية في الشرق الأوسط على أساس الدين الإسلامي . فهي ترى أن الدين أسمى من أن يزج به أحد في السياسة ، ولهذا لم تصب محادثات السيد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان ومشروعاته هوىً في نفس أقطاب تركيا ، وإن كان قد استقبل وودع فيها بحفاوة بالغة واكرام عظيم » .

ولم أدهش وأنا أقرأ عن نفور أقطاب تركيا الشديد من إنشاء كتلة عسكرية على أساس الدين الاسلامي ، فلدينا في مصر كثيرون من نوع هؤلاء الأقطاب ، ربّاهم الاستعمار ، ودسّ في أرواحهم وأفكارهم ذلك النفور ، لأن الاستعمار كان يعرف أن لا بقاء له في أرض الاسلام ، ولا حياة اذا هو لم يقتل بذور الاستعلاء الذي يبثه الاسلام في نفوس المسلمين ، ولم يفرق هذا الوطن الاسلامي الكبير الى دويلات قائمة على النعرة القومية الهزيلة ، والحدود الجغرافية الوهمية .

إنما دهشت وسخرت من ذلك التعليل الهزيل التافه لاستبعاد الاسلام من الميدان ... وهو أن الدين أسمى من أن يزج به أحد في السياسة ! ، فأي إسلام هذا الذي يتصوره أولئك الاقطاب؟ إنه إسلام لا يعرفه الإسلام ، فالإسلام ، – كما عرفه أهله – شيء آخر غير هذا التصور المضحك العجيب ، إنه عقيدة تجمع بين قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ونظام اجتماعي ينسّق مصالح المسلمين وأوضاعهم ، ونظام سياسي يوحّد الهدف الاسلامي ، والجيش الاسلامي ، والكتلة الاسلامية .

هذا هو الإسلام في حقيقته . لا كما يتصور الذين استعمر الغرب أفئدتهم وأرواحهم ، وممن خسروا أنفسهم ودينهم ، وممن ارتضوا أن يصبحوا ذيولاً ذليلة لا حول لها ولا قوة ، ودينهم يأبى عليهم أن يكونوا للكافرين أولياء ، وأن يكونوا للمعتدين بِطانة ، وأن يوادّوا من حادّ الله ورسوله ، وممن قاتلوا

المسلمين وأخرجوهم من ديارهم أو ظاهروهم على إخراجهم .

كنت أفهم أن يكون أقطاب تركيا صرحاء – كما كانوا في يوم ما – فيقولوا : إننا لا نؤمن بهذا الاسلام ، ولا نثق به . ولا نبغي أن تقوم بيننا وبين المسلمين صلة ولا تعامل . وأننا نبغي أن نلحق بالقافلة الغربية ، ولن نوجه وجهنا شطر هذا الشرق ومن فيه .

لقد قالوها يوماً . أما اليوم فسادتهم الأمريكان يتجهون الى الوطن الاسلامي وإلى المسلمين ، وهم تبع للسادة أطوع من الخادم الأمين .. وإذن فهم يوصوصون بأذنابهم نحو العرب ، ونحو مصر ، ويرجعون على أعقابهم نفوراً من رابطة الاسلام التي يعتز بها المسلمون .. وهو موقف بائس ذليل ، لا يحسد عليه أحد ، ولا يقبله إلا الأقطاب الذين استعمرت أفئدتهم وأرواحهم للغربيين ..

إن الكتلة الغربية اليوم في أمسّ الحاجة الى المسلمين بصفة عامة ، وإلى العرب بصفة خاصة ؛ إنها في حاجة الى مليون مجند من العرب في الحرب القادمة ، تجري عليهم تجارب القنبلة الذرية الروسية ، أو تجرب فيهم حرب الميكروبات ، لتنتفع بهذه التجربة في وقاية الجنود البيض من ويلات هذه الأسلحة الجهنمية الخبيثة .

ولقد كان المجنّدون الهنود وجنود المستعمرات يقومون بهذا الدور في الحربين الماضيتين ، ولكن الهند قد استقلت ،

واستراليا وجنوب إفريقيا لن ترسلا جنوداً الى الشرق الأوسط، وإذن فلا بد من مليون مجنَّد عربي لهذا الغرض الإنساني النبيل!

وعندئذ ينشط عملاء الكتلة الغربية في الضحك على ذقون العرب: تنشط تركيا، وتنشط العراق، وتنشط اسبانيا، وتنشط الصحف المصرية التي تحررها أقلام المخابرات وتمونها بالمال والمطابع والورق والأخبار. ويضرب كل وسيط على نغمة.. تركيا تضرب على نغمة محور أنقرة - القاهرة مع التحرز الشديد من التكتل على أساس الدين. ونوري السعيد يضرب على نغمة الحلف الدفاعي العربي تحت وصاية الكتلة الغربية. وإسبانيا تضرب على نغمة حلف البحر الابيض المتوسط، والتقرب بين الإسلام والكثلكة. ويضرب معها - مع الأسف - رجال مصريون كانوا يوماً ما فوق مستوى الشبهات! وصحف تعلن عن مسابقات التعارض بين الإسلام والشيوعية، وصحف تتهم دعاة الكتلة الإسلامية، وصحف تتحدث عن اهتمام أمريكا بالإسلام.

إنها السمسرة التي يقوم بها «الشرفاء»!

وبينما يجري هذا كله، يجري اضطهاد المسلمين في كل مكان على ظهر هذه الأرض: يجري في العالم المسيحي، والعالم الشيوعي والعالم الوثني.. كأنما هنالك حلف أعظم مقدس ضد المسلمين.

ولقد تحدثت في الاسبوع الماضي عن ذلك الأسلوب المفجع في اضطهاد المسلمين في الحبشة - وهم أغلبية السكان، ذلك

الاضطهاد الذي لو وقع مثله لمسيحي واحد لارتجت الأرض واندكت الجبال ، واتهم المسلمون بالتوحش والهمجية في القرن العشرين .

ومثل هذا الاضطهاد بل أشنع منه يتم في روسيا ، ويمتاز بأنه عملية إفناء منظمة تتم بمعرفة الدولة منذ ربع قرن ، وقد انتجت تناقص المسلمين من اثنين وأربعين مليوناً الى ست وعشرين .

ويتم في (يوغوسلافيا) حيث تتعرض حياة مليوني مسلم ووجودهم للزوال ، وبخاصة العنصر الألباني المسلم الذي اغتصبت يوغوسلافيا أرضه بالتعاون بين روسيا وانجلترا وفرنسا وأمريكا في أثناء الحرب العالمية الثانية .

ولعل من الطريف أن نذكر أن الانجليز والامريكان في أثناء حربهم مع دول المحور كانوا يسلحون العناصر الشيوعية في البانيا لتكوين عصابات ضد المحور ،ولا يسلحون العناصر المسلمة المستعدة للقيام بنفس المهمة ! لماذا ؟ لأن الدماء الصليبية تجري في عروقهم . وحين لا يكون هنالك مفر من تسليح أحد الفريقين فهم يسلحون الشيوعيين .

أما «الأقطاب» في تركيا ، والأقطاب في مصر ، والأقطاب في البلاد العربية ، فهم ينفرون من التكتل على أساس الإسلام لأن المسلمين متعصبون !

إن الاستعمار لم يكن يلعب . لقد كان يعد عدته لليوم الذي

ترحل فيه جنوده عن الوطن الاسلامي . وكانت عدته هم هؤلاء الأقطاب الذين ينفرون من الدين .

إن بريطانيا حينما أرادت أن تختار مستشاراً انجليزياً لوزارة المعارف المصرية ؛ اختارت قسيساً ، فلم يكن « دنلوب » إلا رجلاً من رجال الكنيسة المتعصبين .

اختارته وتركته ينشىء عقليات ، ويكوّن شخصيات تتولى الإشراف فيما بعد على وزارة المعارف المصرية ، وعلى حركة الثقافة المصرية .. لتؤدي للاستعمار تلك الخدمة التي لا يستطيعها الانجليز البيض كما يستطيعها الانجليز السمر في المجتمع والدواوين.

وكذلك صنع الاستعمار في كل مكان .. ولولا قوة كامنة في الإسلام ، تتخطى الحدود والسدود ، ما أمكن أن تنبثق النبتة من جديد .

ولكن ها نحن أولاء نعيش ، لنرى المد الإسلامي تظهر بوادره من جديد . ونرى الحواجز والسدود التي وضعها الإستعمار في الطريق . ونرى القردة التي صنعها الاستعمار على عينه تقف لحراسة السدود ...

ثم ماذا ؟ ...

ثم لا بد للمد أن يفيض ، ولا بد للسدود أن تنهار ، ولا بد للقردة أن يطمرها الموج والركام ، وعندئذ تتم كلمة الله . وتعلو راية الإسلام ، الإسلام الصحيح ، الإسلام الذي يصرّف الحياة كلها .

المسلمون متعصبون ...

- ٣ -

كانت روسيا القيصرية في خلال القرون الأربعة الماضية ، من أشد الدول عداء للإسلام والمسلمين ، ومن أشدها تنكيلا وأعنفها حرباً وأكثرها إلحاحاً في الصليبية المتعصبة الذميمة .

« كان الاضطهاد في عهد القياصرة ناشراً جناحيه ، في كنف الموظفين الروسيين (بريكاز) والمبشرين المسيحيين ، بتأييد رسمي من الدولة القيصرية » . لذلك لا يعتبر الاضطهاد الديني في روسيا أمراً حل بها حديثاً ، إنما الاضطهاد الشيوعي المرعب الذي هز العالم الإسلامي والإنساني قاطبة ، ضرب من برنامج مواصلة القضاء على الدين المحمدي ، مع عظيم الفارق بين اضطهاده واضطهاد الدين المسيحي في روسيا الحمراء .

«رفع هير ماهان أُسقف قازان في بداية العصر السادس عشر تقريراً الى أعتاب مولاه القيصر تيودور ، يسرد فيه — بلسان محرق بالغ الأثر — حوادث فشل التبشير المسيحي .. وارتداد المسيحيين الجدد الى دينهم الأصلي الإسلامي ، وجرأتهم في إقامة

شعائرهم الدينية بمساجد أقاموها من جديد . وبنـاء على هذا التقرير الاسقفي قام القيصر المذكور بأخذ تدابير صارمة ضدهم، وأبلغهم حرمانهم من أملاكهم مع إجبارهم على الإقامـة في حي أنشىء خاصة لهم بمدينة قازان ، تحت إشراف أحـد أمراء الروس . ثم كلف الشبان تكليفاً بالزواج من روسيات ، والبنات من روسيين . ومن خالف الأمر كان مصيره الى السجن وتعذيبه فيه بوضع القيود في يديه ورجليه وضربه بالسياط . وكما لو كان هذا التعذيب غير كاف لإشباع نفسية القيصر أمر فوق ذلك بهدم المساجد التي بنيت من عصور ، وبطرد المسلمـين من مدينتهم ، وكان له ما أراد .

« وأما البلاشفة فقد كتموا بمهارة خططهم السرية ، وحقيقة موقفهم من الدين ، وتمكنوا من الظهور أمام الشعوب – الى حين تركيز القوة في يـدهم – بمظهر محبب الى النفوس . وعلى أثر اطمئنانهم للموقف الخارجي ، بدأ الحزب الشيوعي ينشر خلاياه المنظمة أدق تنظيم في أرجاء الاتحاد السوفيتي ، فعمدت هـذه الخلايا الإلحادية الى استئصال شأفة الدين ، أولاً : بالقضاء على القضاة ، والمفتين ، والمدرسين ، والوعاظ ، والخطباء ، والأئمة والمؤذنين . واحتلوا المدارس ، والجوامع ، والمساجد . وألغوا في القرم والبلاد الإسلامية الأخرى المحاكم الشرعية وديار الافتاء. وقد أصبح كل ذلك أثراً بعد عين . ثم حولوا المساجد والجوامع الى مسارح واصطبلات لخيول فولخوز . أو مخازن لمؤن وذخائر، أو الى أندية ، أو الى دور للسينما وما الى ذلك من أشياءلا يقرهم

عليها شرع ولا قانون . وقد جمع البلاشفة نسخ القرآن والكتب الدينية وأحرقوها حرقاً . لم يشهد الإنسان هذا الانحطاط الخلقي حتى في القرون الهمجية الأولى ، ونجت من أيدي الملحدين بعض الجوامع النادرة التي اعتبرت آثاراً عمرانية ، او أمرت موسكو بعدم مساسها لتتخذها عند اللزوم دليلاً ضد ما قد يتسرب الى البلاد الخارجية من (أخبار مزورة وكاذبة) ! في نظرها . وبذلك انقطع الأذان المحمدي في أنحاء القرم ، والبلاد الإسلامية السوفيتية ، ولا أحد يجرؤ على اداء شعائره الدينية فيها لما فيه من خطر هلاكه .

« وصل الاضطهاد الديني في القرم ذروته عام ١٩٣٨ حيث لم يعد الناس يشاهدون فيها شيئاً باسم الدين بعد إحراق نسخ القرآن والكتب الدينية ، وقلب المدارس والمساجد الى مؤسسات شيوعية ، وقتل العلماء والعظماء ، او نفيهم الى سيبريا . وقد حدث في — كوزلو — أن اعتقل في ليلة من ليالي عام ١٩٣٨ آخر من بقي من العلماء ، وبعد التعذيب أتى الشيوعيون بهم منهوكي القوى الى مبنى تكرير مياه المدينة المقام على شاطىء البحر الأسود ، واسمه (فودا قنال) ثم زجوا بهم في سكون الليل وعلى الانفراد في عجلات الماكينات الخلفية المعدة بطريقة خاصة من قبل الإدارة الشيوعية ، لتكون مذبحة للإنسان في (الفردوس الشيوعي) على أرض القرم . وأما العمال المكرهون على القيام بهذه العملية الشنيعة فلا يزالون على قيد الحياة لاجئين الى أوروبا وتركيا ، والى غيرهما » .

هذه الصورة البشعة المروعة في القرم لا تبلغ بشاعة الصورة الوحشية التي تمثلت في التركستان الغربية والشرقية حيث يقطن - او كان يقطن - أربعة وأربعون مليوناً من المسلمين ، تناقص عددهم الآن على يد آلة الإبادة السوفيتية الشنيعة الى ستة وعشرين مليوناً فقط .

فلندع كانباً أخذ يحدثنا عن وسائل التعذيب الجهنمية ، التي سلطت على العنصر الإسلامي في التركستان الغربية الخاضعة لروسيا ، والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية اسماً ولروسيا الشيوعية فعلاً .

إنه الاستاذ (عيسى يوسف آلب تكين) الذي قدرت له الحياة من جديد بعد فراره من الإدارة الجهنمية الرهيبة ، ليكتب كتابه « المسلمون وراء الستار الحديدي » يحدثنا فيه عن (صور من التعذيب والقتل) ، وسنضطر أن نغفل ذكر بعضها هنا لأنها من القذارة بحيث يخرس ذكرها كل أدب إنساني. مكتفين بما تطيق الآداب الإنسانية أن نذكره للناس ... وهذه هي :

١ - دق مسامير طويلة في الرأس حتى تصل الى المخ .

٢ - إحراق المسجون بعد صب البترول عليه وإشعال النار فيه .

٣ - جعل المسجون هدفاً لرصاص الجنود يتمرنون عليه .

٤ - حبس المسجونين في سجون لا ينفذ اليها هواء ولا نور وتجويعهم الى أن يموتوا .

٥ – وضع خودات معدنية على الرأس وإمرار التيار الكهربائي فيها .

٦ – ربط الرأس في طرف آلة ميكانيكية وباقي الجسم في ماكينة أخرى ، ثم تدار كل من الماكنتين في اتجاهات متضادة ، فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حيناً ومبتعدة حيناً آخر حتى يتمدد الجزء من الجسم الذي بين الآلتين ، فإما أن يقر المعذب وإما أن يموت .

٧ – كيّ كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة الى درجة الاحمرار .

٨ – صب زيت مغلي على جسم المعذب .

٩ – دق مسمار حديدي او إبر الجراموفون في الجسم .

١٠ – تسمير الأظافر بمسمار حديدي حتى يخرج من الجانب الآخر .

١١ – ربط المسجون على سرير ربطاً محكماً ثم تركه لأيام عديدة .

١٢ – إجبار المسجون على أن ينام عارياً فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء .

١٣ – نتف كتل من شعر الرأس بعنف ، مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس .

١٤ – تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة .

١٥ ــ صب المواد الحارقة والكاوية في فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطاً محكماً .

١٦ ــ وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه الى ظهره .

١٧ ــ ربط يدي المسجون وتعليقه بهما الى السقف وتركه ليلة كاملة او أكثر .

١٨ ــ ضرب أجزاء الجسم بعصا فيها مسامير حادة .

١٩ ــ ضرب الجسم بالكرباج حتى يدميه ، ثم يقطع الجسم الى قطع بالسيف او بالسكين .

٢٠ ــ إحداث ثقب في الجسم وإدخال حبل ذي عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل .

٢١ ــ ولكي يضمنوا أن يظل المسجون واقفاً على قدميه طويلاً يلجأون الى تسمير أذنيه في الجدار .

٢٢ ــ وضع المسجون في برميل مملوء بالماء في فصل الشتاء .

٢٣ ــ خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضها الى بعض .

٢٤ ــ والنساء حظهن من مثل هذا العذاب أنهن يعرين ويضربن ضرباً مبرحاً على ثديهن وصدورهن . أما بقية تعذيب النساء فإننا نمسك عنه . لأن المواقع التي اختاروها من أجسامهن

والطرق الدنيئة التي استعملوها تجعلنا نستحي من ذكرها وكتابتها .

ثم يتشدق المتشدقون هنا بالمادة ١٢٤ من الدستور السوفيتي الذي عدله ستالين سنة ١٩٣٦ لأنها تقول « صيانة لحريات اعتقاد جميع المواطنين يعلن أن الدين في روسيا السوفيتية يفصل عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة ، فلجميع المواطنين حريتهم ، في ممارسة الشعائر الدينية او في الدعوة الى الالحاد » .

فأما تعليم الالحاد للتلاميذ الصغار فتتولاه الدولة بكل أجهزتها ،وأما تعليم الدين فتنص الفقرة ١٢٢ من قانون العقوبات لروسيا السوفيتية المطبوع عام ١٩٣٨ في موسكو على ما يلي :

« .. إن تعليم الدين للأحداث في مدارس الدولة او المدارس الخاصة او في المعاهد الشبيهة بها يعاقب عليه القانون بأمره بالحبس لمدة أقصاها سنة مع الشغل » .

وفي أثناء الحبس تتم وسائل التعذيب الوحشية التي سبقت الإشارة اليها .

وبعد، فقد عرضنا من قبل صور الاضطهاد الوحشي للإسلام والمسلمين في الحبشة المسيحية ، وفي يوغوسلافيا الشيوعية المعادية لروسيا في هذه الأيام . وها نحن أولاء أمام الشناعة الروسية في أيام القيصرية وأيام السوفييت على السواء..وسنمضي في استعراض هذه الاضطهادات في بلاد أخرى من العالم المسيحي والعالم الشيوعي والعالم الوثني ، كي نثبت « أن المسلمين متعصبون » لأنهم يفكرون في تكتل إسلامي تعيش في ظله الاقليات غير المسلمة في سلام وحرية واطمئنان ..

المسلمون متعصبون ...

— ٤ —

آية تعصبهم تلك الاضطهادات المفجعة التي تقع عليهم في كل مكان ، والتي رسمنا منها صوراً سريعة في كلمات ماضية ثلاث .. آية تعصبهم ذلك الظلم الشنيع الذي يعانونه في الحبشة المسيحية وفي يوغوسلافيا الشيوعية المخاصمة لروسيا ، ثم في روسيا نفسها ، وفي الصين قديماً وحديثاً ، وما يلقونه على أيدي الاستعمار الغربي في كل مكان .

ولقد صوّرنا في مقال مضى بعض ما لقيه المسلمون في القرم ، مقتبساً عن كتاب : « كارثة القرم الإسلامية في الاتحاد السوفيتي » لمؤلفه الاستاذ « يوسف ولي شاه اورالكيري » وفي التركستان الغربية في روسيا ، والتركستان الشرقية الخاضعة للصين الشيوعية ، مقتبساً عن كتاب : « المسلمون وراء الستار الحديدي » لمؤلفه الاستاذ « عيسى يوسف آلب تكين » ، وكلاهما من منكوبي الوحشية الشيوعية ضد العنصر المسلم وضد الإسلام .

فالآن نمضي في هذا الاستعراض الأليم ، نمضي مع آلام المسلمين في هذه الأرض ، نمضي ، ليعلم المسلمون مدى حاجتهم الى

تكتــل إسلامي صحيح يحميهم من هــذا العذاب ، ويرد عليهم عزتهم وكرامتهم وأوطانهم . نمضي رغم « الببغاوات » التي ترى في الدعوة الى التكتل الإسلامي تعصباً لا يليق بالقرن العشرين ! وتخشى أن يقول العالم « المتحضر » إن المسلمين متعصبون !

إن هناك عملية افناء منظمة تزاولها الدولة الروسية للقضاء على العنصر الإسلامي فيها ، وقــد بلغت نسبة الفنــاء في بعض المناطق ٤٥ ٪ باعتراف جريدة برافدا الرسمية ، وإن كانت قد نسبت هذا الى المجاعة التي حلت بالقرم . ولكن هذه المجاعة لم تصنع في المدن المجاورة – غير الإسلامية – شيئاً ! فكأنما كانت تختار المسلمين وحدهم لتحصدهم ، وهو أمر في روسيا السوفيتية معقول !

ثم نمضي مع الزمن فنجد أهل القرم المسلمين يكنون لروسيا السوفيتية البغضاء ويتربصون بها الدوائر ، حتى اذا كانت الحرب العالمية الثانية وزحفت الجحافل الألمانية الى الأرض الروسية ، تخيل المسلمون أن العداء المستحكم بين الروس والألمان سيمنحهم فرصة ينتعشون فيها ، ناسين أن الروح الصليبية هي التي تسيطر على الروس وعلى الالمان سواء تجاه المسلمين . وأن الاوروبيين قد يعادي بعضهم بعضاً ، وقد يقتل بعضهم بعضاً ، وقد ينقسمون الى معسكرات شتى .. ولكنهم سواء عندما يواجهون المسلمين !

فلنــدع الاستاذ يوسف ولي شاه يحــدثنا عن مأساة المسلمين على أيدي الالمان في القرم ، كي لا يقول أحد : إن الروس إنما كانوا يجزون المسلمين عــلى عدائهم للشيوعية ، فهــا هم الألمان –

أعـداء الروس – لا يجزونهم عـلى عدائهم للشيوعية إلا شراً ونـكالاً لأنهم مسلمون !

« ألوف مؤلفة . من أبناء المسلمين الذين ألقوا السلاح بمحض إرادتهم تاركين صفوف الجيش الأحمر ومعرّضين أسرهم للخطر . سيقوا الى ما وراء خطوط النار مئات الكيلومترات كقطيـع الغـنم . حفـاة الاقدام ، وعراة الاجسام والرؤوس ، دون أن يقدم اليهم طعـام ولا شراب او غطاء . ومن تأخر منهم بضع خطوات – ولو لعـذر قاهر كالمرض او التعب – كان نصيبـه رصاصة ترديه قتيلاً دون سؤال او جواب ! وأقل احتجاج او تذمر من المعاملة الالمانية القاسية ، كان كافياً للجندي أن يودع هذه الدنيا الى الأبد » .

وكانت الادارة الالمانية تقوم بهـذه العملية ضـد الأسرى المسلمين الأبرياء بعد فرزهم من بين عموم الأسرى .

ما كان الاهالي والأسرى يطلبون من الالمان شيئاً أكثر من الاعتراف باستقلالهم ولو مبدئياً ، ثم تركهم أحراراً في تأليف جيشهم ليحاربوا بـه الشيوعيين ، ويطردوهم بأسلحة موسكو نفسها دون الحاجة الى عتاد الماني ، كان زعماؤهم الذين يتفاوضون مع الالمان يضيفون الى ما يقولون : إن القيادة الالمانية لو أنها تشك في أمرهم او تخشى الأمن او الاضطراب في مؤخرة الجيش ، فليس عليها إلا أن تحتفظ بقواتها المسلحة في الاحتياط وأن ترابط وراء الخطوط مـع احتلال النقط والقلاع التي ترى من

صالحها احتلالها للاطمئنان على نفسها ، حتى تتأكد من حسن نيات الاهالي الذين يريدون تمزيق موسكو الشيوعية . ولكن النفس الالمانية أبت إلا أن تجيبهم : بأن المانيا ستستولي على الاتحاد السوفيتي بدماء الالمان الطاهرة النقية !

ولعل القراء يذكرون ما قلناه من قبل ، عن موقف الحلفاء من العصابات الالبانية المسلحة في يوغوسلافيا ،وقد كانت تطلب السلاح لتقوم لهم بحرب الالمان وطردهم ، ولكنهم وقفوا منها الموقف ذاته ، فلم يأمنوا المسلمين ولم يعطوهم السلاح ، بينا أعطوه للمسيحيين ليقوموا بنفس المهمة وراء الخطوط الالمانية .

وهكذا يتحد موقف الالمان في روسيا مع موقف الحلفاء في يوغوسلافيا . كلاهما يخص العنصر المسلم بألوان ممتازة من الاضطهاد والعسف ، وكلاهما يأبى أن يعين هذا العنصر او يستعين به حتى في أحرج الظروف .

لماذا ؟

لأن الدماء الصليبية لا تزال تجري في عروق الجميع. يستوي في ذلك الحلفاء الذين يلبسون رداء المسيحية والمسيحية منهم براء ، والشيوعيون الذين ينبذون الأديان جميعاً ، والنازيون الذين يعلنون موت الاله القديم ! ويهتفون بحياة الزعيم .

إنهم يختلفون فيما بينهم ويتخاصمون . فأما حين يواجهون المسلمين ويواجهون الإسلام ، فإنهم يواجهونه عصبة واحدة وملة واحدة ، في مشارق الارض ومغاربها .

فإذا نحن قلنا : إن المسلمين يجب أن يتضامنوا ليواجهوا العاصفة المسلطة عليهم من العالم المسيحي ، والعالم الشيوعي ، والعالم الوثني على السواء أنغض قوم رؤوسهم ،وقالوا : أنها دعوة متعصبة فات عليها الأوان .

دعوة متعصبة ، لأن العالم الإسلامي هو الوحيد في تاريخ البشرية ، الذي سمح للمخالفين له في العقيدة أن يعيشوا في ظله متمتعين بكافة الحقوق والضمانات. ولأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يكلف أتباعه حماية حرية العبادة للمخالفين له قبل حماية حرية العبادة لأنصاره ، فيقول القرآن الكريم ، بعد إذنه للمسلمين أن يقاتلوا دفاعاً عن حرية العقيدة :

«ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعْضٍ لهدِّمتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً » .

فلا يجيء ذكر المساجد إلا في النهاية ، بعد الاشارة الى الصوامع والبيع والصلوات ، أمكنة العبادة والصلاة للنصارى واليهود ، قبل مساجد المسلمين .

أليس كذلك أيها السادة المثقفون ؟

المسلمون متعصبون ...

– ٥ –

نختتم اليوم بهذه الكلمة سلسلة الصور المفجعة ، التي رسمناها لحياة المسلمين المضطهدين في مشارق الارض ومغاربها ، وفي ظلال جميع العقائد والنظم في الارض : في الحبشة المسيحية ، وفي يوغسلافيا ، وفي روسيا ، وفي الصين .

واليوم ها نحن أولاء مع المسلمين في الهند ، حيث نطلع على صورة بشعة من صور الاضطهاد والإفناء ، لا ندري إلامَ تؤدي بالأربعين مليوناً من المسلمين الذين لا يزالون يعيشون في الهندستان .

عندما تم تقسيم شبه جزيرة الهند الى هندستان وباكستان ، أصدر الزعيم غاندي والقائد الأعظم محمد علي جناح بياناً مشتركاً جاء فيه :

« تعلن كل من الحكومتين أنها تزمع صيانة المصالح المشروعة لجميع مواطنيها بغض النظر عن أديانهم وطبقاتهم وأجناسهم . وستعتبر جميع المواطنين متساوين في الحقوق ، فتضمن كل من

الحكومتين لجميع الشعب حريته بما فيها حرية الكلام ، وحرية تأليف الجمعيات ، وحرية العبادة – كلٌ وفق طريقته – وحماية لغاتهم وثقافتهم .

وتتعهد كل من الحكومتين بأن لا تسيء معاملة من كانوا معارضين سياسيين قبل الخامس عشر من شهر اغسطس – يوم التقسيم » .

كذلك أعلن رئيس المجلس التأسيسي الهندي ، في أثناء انعقاد الجلسة التاريخية في منتصف ليلة ١٤ اغسطس سنة ١٩٤٧ بياناً جاء فيه :

« إننا نؤكد لجميع الاقليات في الهند بأنهم سيعاملون بالحسنى ولن يساء إليهم بأي صورة من الصور ، ولن يتعرض بسوء لدينهم وثقافتهم ولغاتهم . والمنتظر منهم في مقابل ذلك أن يبدوا إخلاصهم للبلاد التي يقيمون فيها ولدستورها » .

وبالفعل تضمن الدستور الهندي الذي وضعه المجلس التأسيسي تحت عنوان « الحقوق الاساسية » نصوصاً على حقوق الاقليات في الفقرات التاسعة والعاشرة والتاسعة عشرة والعشرين جاء فيها:

مادة ٩ – على الدولة ألا تسيء لأي مواطن لأسباب تتعلق بالدين أو العنصر أو الطبقة أو الجنس .

مادة ١٠ – لجميع المواطنين فرص متساوية فيما يختص بأمور الخدمة في الدولة ، ولن يحال دون أي مواطن وتولي أي منصب في الحكومة ، لمجرد أسباب ترجع الى الدين ، أو الطبقة ، أو

الجنس ، أو النسب ، أو المولد .

مادة ١٩ – تكفل لجميع الاشخاص حرية الاعتقاد وحق اتّباع الاديان وممارستها ونشرها .

مادة عشرين – تخوّل كل ملة أو طائفة دينية أو فرقة منها أن تؤسس المعاهد ، وتديرها لاغراض دينية خيرية وأن تدبر شؤونها الدينية بنفسها .

كل هذه النصوص الجميلة ماذا كان مصيرها عند التطبيق العملي ؟

لقد بدأت الهند حياتها المستقلة باغتيال زعيمها العظيم (غاندي) . اغتاله أحد الهندوس المتعصبين ، لانه كان يحاول تطبيق روح هذه النصوص ، في معاملة المسلمين بالهند وعددهم نحو أربعين مليوناً .

اغتاله شاب ينتمي الى جمعية (راشتريا سويك سنغ) ، وهي جمعية تضم فرقاً من الارهابيين الهندوس المتعصبين ، الذين لا يطيقون وجود العنصر المسلم في الهند ، ويعملون على إبادته بوحشية منقطعة النظير .

هذه الجمعية تولت إبادة المسلمين إبادة تامة في ولايات (بهرات بور) و (الوار) و (كابور تالا) .

وكان عددهم في هذه الولايات على التوالي : ١١٠،٠٠٠ و ٢٥٠،٠٠٠ و ٢١٣،٧٠٤ فلم يعد أحد منهم يرى النور .

كذلك قامت هذه الفرق ، هي وفرق السيخ المسلحة بمذابح يشيب لهولها الولدان ، في دهلي وبعض أقسام البنجاب ، حيث قتل مئات الالوف من المسلمين العزل ، واضطر من نجا منهم الى الهجرة ، فبلغ عدد من وصل الى باكستان من هؤلاء المهاجرين حوالي سبعة ملايين ، مات ضعفهم في الطريق من الجوع والعطش والاغتيالات . ووصل من وصل منهم الى باكستان في حالة يرثى لها ، مجردين من كل ما يملكون ، لان حكومة الهند لم تستطع حمايتهم أو لم ترد حمايتهم ، وقد استولت على أملاكهم بحجة أنهم نزحوا عن البلاد !

لقد بلغ قتلى المسلمين خلال المذابح ، التي جرت في شرقي البنجاب في شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ ، وفقاً لتعداد رسمي ٤٧٢،٠٠٠ نفس ، ومع هذا يصرخ رئيس المجلس التشريعي في اقليم المقاطعات المتحدة بالهند – في خطاب ألقاه بمدينة عليكرة – بقوله :

«ليس للمسلمين حق في البقاء في الهند بعد أن ذبحوا الهندوس والسيخ في البنجاب ،فخير لهم أن يغادروا الهند في أقرب وقت»

والواقع ،أن فرق الارهابيين الهندوس والسيخ ، ما كانت لتزاول شناعاتها في هذه المذابح ، لولا أنها تعتمد على تشجيع كثير من الرجال المسؤولين في الهند أمثال هذا الرئيس .

وعلى الرغم من أن زعماء الهند يعرفون أن هذه الفرق تتبع النظام الفاشي المتطرف ، ولا تؤمن بالنظام الديمقراطي ، فانهم لم

يتخذوا أي إجراء للحيلولة دون أعمالها البشعة ، بل على العكس من ذلك نرى أن السردار بالابهاي باتيل ، وكيل رئيس وزارة الهند ينصح رجال حزب المؤتمر : بأن لا يسيئوا الى أعضاء فرق (راشتريا سويك سونغ) ، بحجة ان أتباع هذه الفرق ليسوا بمجرمين ، وإنما هم وطنيون متعصبون لوطنهم !

والحكومة الهندية تقوم بتجريد المسلمين من السلاح ، وبذلك يصبحون فريسة سهلة لهذه العصابات المسلحة ، التي لا يحاول أحد تخفيض تسلحها ، بل تجد المساعدات السرية والعلنية من كثير من الرجال المسئولين ، الذين لا يخفون حقدهم على المسلمين لمجرد كونهم مسلمين .

وهذه صورة مظلمة لأحوال المسلمين الباقين في الهند ، يرسمها السيد عبدالله دهلوي في رسالة بعنوان : « المسلمون في الهند تحت حكم الارهاب » نقتطف منها هذه السطور :

يختلف مصير المسلمين في الهند بعد التقسيم باختلاف المقاطعات . حقاً إن نيران الاضطراب قد شبت أول ما شبت ، بعد التقسيم مباشرة في شرق البنجاب ، وقد ثبت بصورة لا تقبل الشك – بشهادة كثير من المراقبين السياسيين والنشرات العديدة – أن السكان المسلمين في هذا الاقليم ، إما أن يكونوا قد أبيدوا عن بكرة أبيهم ، او طوردوا من مساكنهم حتى خلت البلاد تماماً من أي أثر لهم .

لقد بدأت الاضطرابات في قلب البنجاب ، ثم انتشرت

بسرعة حتى التهمت نارها كل بقعة في الهند بدرجات متفاوتة . وبالرغم من أن طبيعة العدوان وطريقة إعداده ضد المسلمين ، سارت على وتيرة واحدة ، مهما تفاوتت المقاطعات ، فقد بديء أولاً بتجريد جميع السكان المسلمين من السلاح ، لدرجة أن أصبح هذا العمل هدف رجال الدوائر الهندية الوحيد . وكل بيت من بيوت المسلمين، بغض النظر عن سلوك صاحبه وميله السياسي ، وكل مؤسسة من المؤسسات القومية للمسلمين والمساجد والمقابر ، وكل ما له علاقة بالمسلمين ، أصبح عرضة لتفتيش وحشي عن السلاح والذخيرة . أما اولئك الذين أدركوا ما قد يتعرضون له من ظروف قاسية نتيجة التقسيم وحاولوا النجاة بأرواحهم ، فقد كانوا عرضة لمعاملة البوليس القاسية ، وكثير من المنظمات العسكرية الهندية ، خفت لمعاونة الشرطة في هذا الطراد الوحشي الفظيع .

وهنا استطاع الشرطة ، بمعاونة الأهالي من تجريد المسلمين حتى من متاعهم الشخصي ، ولكي يبرر الهنود أعمالهم الاجرامية هذه ، إدعوا بأن المسلمين المتجهين الى باكستان كانوا يهرّبون النساء الهنديات ! ومنعاً لوقوع مثل هذا العمل قررت السلطات اجراء تفتيش كامل لجميع النساء المسلمات ، اللواتي حاولن النزوح الى باكستان .

وهناك كثير من الحوادث الشاهدة بفصل كثير من العائلات عن رجالها ، وعدم السماح لها باستئناف السير بزعم أن على

أجسامهن بعض علامات الوشم مما يدل على أنهن قد يكن غير مسلمات ! أما المسلمون الذين قدّر لهم البقاء في الهند ، فقد جردوا من كل شيء يستطيعون الانتفاع به في الدفاع عن أنفسهم.

والمؤلم أن الهنود لا يكتفون بما يفرضون من غرامات وسجن على المسلمين ، بدعوى أنهم هم الذين سببوا الاصطدامات ، بل حياة كل فرد منهم قد انحطت الى اسوأ درك من دركات الخوف ، والقلق في انتظار ما قد يأتي به الغد من عدوان جديد.

هذه الصورة القاتمة يؤيدها تصرف الهند في ولاية حيدر آباد ، وفي ولاية كشمير . لقد كان حاكم الأولى مسلماً ، وأغلبيتها هندوسية ، فضمت الى الهند بحسب أغلبيتها ، وقد كان حاكم الثانية هندوسياً وأغلبيتها مسلمة فساقت الهند جيوشها ، واحتلت أطرافها وهي الى اليوم لا ترضى بترك الحرية لأهلها في استفتاء حر ليختاروا الدولة التي ينضمون اليها .

. . .

إن المسلمين يعانون الويلات في كل بقاع الارض ، بينما الاقليات التي تعيش في الأمم المسلمة تستمتع بالأمن والطمأنينة ، والمساواة ثم تشكو !

إن النظام الإسلامي وحده ، دون الأنظمة التي عرفها العالم كله ، هو الذي يعامل الاقليات معاملة إنسانية . وسيادة هذا النظام في الأرض هي وحدها التي تزيل تلك العنصرية البغيضة . فإذا نحن طالبنا بقيام هذا النظام على الأقل في الرقعة الإسلامية ، فإنما نطالب للبشرية كلها بعصر منير ، عصر كريم ، يليق بعالم الإنسان .

كلمة الإسلام في الحرب والسّلام

إن هـذا الإسلام — بمبادئه الكلية عن الحيـاة ، وبفطرته العامة عن السلام — يلعن الحروب التي تخوضها البشرية في هذه الأيام ، ويلعن الأسباب الـتي تدفـع بهـا الى الوجود ، ويلعن الداعين اليها والخائضين فيهـا . إنهـا حرب ملعونة الدوافع ، ملعونة النتائج .. لأنها كلها حرب عـلى كلمـة الله في الارض ، وحرب على المبادىء العليا التي أرادها .

ومن ثم ؛ فالإسلام يحرم علينا أن ننضم الى قوى الطاغوت في الارض ، وأن نعاون على الإثم والعدوان : « الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » . وما من شك ان بواعث هـذه الحروب وأهدافها ليست في شيء من كلمة الله ، وليست بحال من الأحوال في سبيل الله .

وإن هذا الإسلام ، ليحرم علينا أن نمـد أيدينا الى الذين يؤذون المسلـمين ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويظاهرون عـلى إخراجهم: « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين،وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم انتولوهم.ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

ولقد اشتركت انجلترا ،وأمريكا ومعها روسيا ،في إخراجنا من ديارنا بفلسطين – وكل دار للمسلمين دارنا – ولقد اشتركت فرنسا في إيذائنا ، ومقاتلتنا في الشمال الافريقي كله وما تزال . ولقد قاتلونا جميعاً في الدين وما يزالون .

ومن ثم فكل معاهدة وكل تعاون ، مع واحدة او أكثر من هذه الدول الأربع يحرمها الإسلام تحريماً ، ويعد الدولة التي تعقدها خارجة على نص إسلامي صريح . فلا طاعة لهذه الدولة على رعاياها في المنكر ، بل على الأمة أن ترد الدولة عن المنكر بكل وسيلة وبكل طريق .

وإن هذا الإسلام ، ليحتم علينا أن ندفع عن البشرية الظلم وأن نبدأ بأنفسنا في دفع الظلم عنا ، وليس ظلم على وجه الارض أشنع من الاستعمار ، وهو يتمثل بالقياس الى الوطن الإسلامي اليوم في ثلاث دول باغية ظالمة عادية : انجلترا وفرنسا وإسرائيل.

ومن ثم ؛ فالإسلام يدعونا لأن نجاهد هذه الدول ، في كل ميدان، وأن نمتشق في وجهها في أول فرصة تسنح الحسام ، وأن نعد أنفسنا في حالة حرب معها حتى تكف عن هذا العدوان :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » .

وما ينطبق على الدول والحكومات في هذا المجال ، ينطبق على الجماعات والأفراد ، فكل شركة وكل مؤسسة مالية او تجارية ، وكل فرد ، يتعاون مع هذه الدول أيَّ نوع من التعاون .. هو خارج على الإسلام ، مخالف عن أمر الله ، خارج

على الأمة الإسلامية ، مؤذ للمسلمين في كل مكان .

وهؤلاء المقاتلون الذين يوردون الأطعمة او المهمات لجيوش هذه الدول في أي مكان ، وهؤلاء العمال الذين يعملون لهم في المعسكرات ، او يقومون لهم بالشحن في الموانىء وسواها ، وهؤلاء الشيوخ المحترفون الذين يستخدمون ظـــاهر النصوص الدينية لإنقاذ المؤسسات الاستعمارية من ورطتها وتقديم العون لها ؛ إنما يخونون المسلمين . ويختانون أنفسهم . ويعصون الله ورسوله كلما امتدت أيديهم بلقمة او خدمة او معونة او فتوى !

إن الإسلام يحتم على كل فرد ، وكل هيئة ، وكل حكومة وكل دولة — في كل بلد إسلامي — أن يجاهد هذه القوى الباغية ، وأن يكافحها ، وأن يوجه اليها الطعنة التي يستطيعها بالطريق الذي يستطيعه . فنحن في حالة حرب دائمة معها حتى تكف عن العدوان علينا ، وتكف عن البغي في الارض كافة

هذه هي كلمة الإسلام ، صريحة واضحة ،عالية مدوية ، تفتح لنا طريق الخلاص ، وترسم للبشرية كلها طريق السلام ، السلام الكامل الشامل ، المبرأ من البغي والفساد والعدوان .

إن الإسلام قوة تحريرية ، تنطلق في الأرض لتحرير البشر من أغلالهم ، وتمنحهم الحرية والنور والكرامة ، دون نظر الى عصبية دينية . فإذا اصطدمت هذه القوة المصلحة البانية بقوى الشر والطغيـــان ، كان عليها أن تكافـح قوى الشر في الأرض حتى تمحوها .

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه في التحرير والتطهير ، لا ينسى أن مصلحة البشرية العليا هي هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية ، ولا مصلحة المسلمين الخاصة . فلا مجال فيه لفكرة الدولة المقدسة ، التي تبيح المحظور ، وتبرر المنكر ، وتصف الغدر والنفاق والكذب بالبراعة السياسية ، او تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية .

إن الحرب التي يخوضها الإسلام هي حرب التحرير البشرية : الحرب على النظم الاقطاعية والاستبدادية ، وعبودية البشر لناس من البشر ، وعلى الطغيان والظلم والشطط ، وعلى الخرافات والأوهام والأساطير ، حرب التحرير بكل معانيها وفي كل ميادينها. الحرب الخالصة من الهوى ، ومن الدوافع الاقتصادية ، والعنصرية ، والتحكمية ، الحرب التي يشرف الإنسانية أن تخوضها ، لأنها تقرير للصفات الإنسانية ، وللحقوق الإنسانية ، وللمبادىء الإنسانية .

إنها ليست الحرب التي تديرها رؤوس الأموال المجرمة ، لتربح من وراء الصناعات الجهنمية التي تقتات بالأرواح والأجسام ، وتبتلع الحضارات والمدنيات . وتحطم النفوس والأخلاق . أو التي تديرها الشركات الاحتكارية ، لحماية مصالحها في البلاد المستعمرة ، واستغلال خاماتها من الموارد الطبيعية والبشرية ، وفتح أسواقها للمنتجات والمصنوعات . أو تديرها البيوت المالية الربوية ، لتحقيق أرباحها الفاحشة . وضمان

المكسب الحرام ، واستغلال الفرص ، والصيد في الماء العكر .

إنها ليست الحرب التي تريد لتضرب بسور فولاذي على الشعوب دون المعرفة والعلم والحضارة ؛ كي يبقى أبناء البلاد المحتلة عمياً صماً بكماً ، يساقون سوق الماشية الى الذبح ، في ذل وفي جهل وفي استسلام .

إنها ليست الحرب التي تخوضها الحضارة الغربية القذرة ضد الإنسانية ، جرياً وراء الربح المادي ، والاستعباد العنصري ، والتعصب الديني ، كتلك الحروب التي عرفها العالم الغربي في كل تاريخه الملوث الطويل .

إنما هي الحرب التي تحمل معها المساواة ، والعدالة ، والكرامة ، لكل كائن بشري على سطح هذه الأرض ؛ وتحققها في عالم الواقع وعالم المثال .. تحققها في التشريع وفي التنفيذ .. تحققها للأسود والأبيض ، والمسلم وغير المسلم . تحققها في صورة واحدة ، وبأداة واحدة ، وفي مستوى واحد لجميع الناس .

فإذا نحن ألقينا من هذه القمة الشامخة — التي يقف عليها الإسلام وحده منفرداً — نظرة على المستنقع الآسن ، الذي تلغ فيه الحضارة الغربية ، أدركنا بعد الشقة بين نظام ينزله الله للبشر ، ونظام يضعه الناس للناس.وأدركنا كم خسرت البشرية يوم تنكرت لنظام الله ، وهي تتعثر في تكبر مضحك ، وفي تعالم مضحك ، تريد أن تقول : انها تريد لنفسها خيراً من ارادة الله . وانها تملك لنفسها خيراً مما أعطاها الله !

وستظل هذه البشرية تطلــع في طريق كلها منحدرات وآكام ، وتلغ في كل مستنقع آسن ، من صنع الحضارة الكافرة المغرورة الضــالة عن الله ؛ الى أن يتسلم الإسلام الزمام ، فيقود البشرية الحائرة الى مثابة العدل والنظام والسلام .

. . .

حسن البنّا وعبقريّة البناء

في بعض الأحيان تبدو المصادفة العابرة كأنها قدر مقدور ، وحكمة مدبرة في كتاب مسطور .. حسن « البنا » .. إنها مجرد مصادفة أن يكون هذا لقبه .. ولكن من يقول : إنها مصادفة ، والحقيقة الكبرى لهذا الرجل هي البناء ، وإحسان البناء ، بل عبقرية البناء ؟

لقد عرفت العقيدة الإسلامية كثيراً من الدعاه .. ولكن الدعاية غير البناء .. وما كل داعية يملك أن يكون بنـّاء ، وما كل بناء يوهب هذه العبقرية الضخمة في البناء .

هذا البناء الضخم .. الإخوان المسلمون .. إنه مظهر هذه العبقرية الضخمة في بناء الجماعات .. إنهم ليسوا مجرد مجموعة من الناس ، استجاش الداعية مشاعرهم ووجداناتهم ، فالتفوا حول عقيدة .. إن عبقرية البناء تبدو في كل خطوة من خطوات التنظيم .. من الاسرة الى الشعبة ، الى المنطقة ، الى المركز الإداري ، الى الهيئة التأسيسية ، الى مكتب الإرشاد .

هذه من ناحية الشكل الخارجي ، — وهو أقل مظاهر هذه

العبقرية – ولكن البناء الداخلي لهذه الجماعة أدق وأحكم، وأكثر دلالة على عبقرية التنظيم والبناء .. البناء الروحي .. هذا النظام الذي يربط أفراد الأسرة وأفراد الكتيبة وأفراد الشعبة. هذه الدراسات المشتركة، والصلوات المشتركة، والتوجيهات المشتركة، والرحلات المشتركة، والمعسكرات المشتركة .. وفي النهاية هذه الإستجابات المشتركة والمشاعر المشتركة، التي تجعل نظام الجماعة عقيدة تعمل في داخل النفس، قبل أن تكون تعليمات وأوامر ونظماً.

والعبقرية في استخدام طاقة الأفراد، طاقة المجموعات، في نشاط لا يدع في نفوسهم ولا يدعهم يتلفتون هنا أو هنالك يبحثون عما يملأون به الفراغ.. إن مجرد استثارة الوجدان الديني لا يكفي .. وإذا قصر الداعية همه على هذه الإستثارة فإنه سينتهي بالشباب خاصة الى نوع من الهوس الديني، الذي لا يبني شيئاً .. وإن مجرد الدراسة العلمية للعقيدة لا تكفي . وإذا قصر الداعية همّه على هذه الدراسة، فإنه سينتهي الى تجفيف الينابيع الروحية التي تكسب هذه الدراسة نداوتها وحرارتها وخصوبتها. وإن مجرد استثارة الوجدان والدراسة معاً لا يستغرقان الطاقة، فستبقى هنالك طاقة عضلية، وطاقة عملية، وطاقة فطرية أخرى في الكسب والمتاع والشهرة والعمل والقتال ..

وقد استطاع حسن البنا أن يفكر في هذا كله .. أو أن يلهم هذا كله، فيجعل نشاط الأخ المسلم يمتد – وهو يعمل في نطاق الجماعة – الى هذه المجالات كلها، بحكم نظام الجماعة ذاته .

وأن يستنفد الطاقات الفطرية كلها ، في أثناء العمـل للجماعة ، وفي مجال بناء الجماعة .. استطاع ذلك في نظام الكتائب ، ونظام المعسكرات ونظام الشركات الإخوانية ، ونظام الدعاة ، ونظام الفدائيين ، الذين شهدت معارك فلسطين ، ومعارك القنال نماذج من آثاره ، تشهد بالعبقرية لذلك النظام .

وعبقرية البناء في تجميع الأنماط من النفوس ، ومن العقليات ومن الأعمار ، ومن البيئات .. تجميعها كلها في بناء واحد . كما تتجمع النغمات المختلفة في اللحن العبقري .. وطبعها كلها بطابع واحد يعرفون به جميعاً ، ودفعها كلها في اتجاه واحد .. عـلى تباين المشاعر والإدراكات والأعمـار والأوساط ، في ربع قرن من الزمان .

ترى أكانت مصادفة عابرة أن يكون هذا لقبه ؟ أم أنهـا الارادة العليا التي تنسق في كتابها المسطور بين أصغر المصادفات وأكبر المقدورات في توافق واتساق ؟

. . .

ويمضي حسن البنا الى جوار ربه ، يمضي وقد استكمل البناء أسسه ، يمضي فيكون استشهاده عـلى النحو الذي أريد له : عملية جديدة من عمليات البناء .. عملية تعميق للأساس ، وتقوية للجدران . ومـا كانت ألف خطبة وخطبة ، ولا ألف رسالة للفقيد الشهيد لتلهب الدعوة في نفوس الإخوان ، كما ألهبتهـا قطرات الدم الزكي المهراق .

إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع ، حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة .

وحينما سلـَّط الطغاة الأقزام الحديد والنار على الاخوان ، كان الوقت قد فات ، كان البناء الذي أسسه حسن البنا قد استطال على الهدم ، وتعمق على الاجتثاث . كان قد استحال فكرة لا يهدمها الحديد والنار ، فالحديد والنار لم يهدما فكرة في يوم من الأيام . واستعلت عبقرية البناء على الطغاة الأقزام ، فذهب الطغيان ، وبقي الاخوان .

ومرة بعد مرة ، نزت في نفوس بعض الرجال — من الاخوان — نزوات .. وفي كل مرة سقط أصحاب هذه النزوات كما تسقط الورقة الجافة من الشجرة الضخمة ، أو انزوت تلك النزوة ، ولم تستطع أن تحدث حدثاً في الصفوف .

ومرة بعد مرة ، استمسك أعداء الاخوان بفرع من تلك الشجرة ، يحسبونه عميقاً في كيانها ، فإذا جذبوه إليهم جذبوا الشجرة ، أو اقتلعوا الشجرة ... حتى إذا آن أوان الشد خرج ذلك الفرع في أيديهم جافاً يابساً كالحطبة الناشفة ، لا ماء فيه ولا ورق ولا ثمار !

إنها عبقرية البناء ، تمتد بعد ذهاب البنـَّاء ..

• • •

واليوم يواجه بناء الاخوان خليطاً مما واجهه في الماضي . .

ولكنه اليوم أعمق أساساً ، وأكثر استطالة وأشد قواماً . .
اليوم هو عقيدة في النفس ، وماض في التاريخ ، وأمل في المستقبل ومذهب في الحياة .. ووراء ذلك كله إرادة الله التي لا تُغلب ، ودم الشهيد الذي لا ينسى .

فمن كان يريد بهذا البناء سوءاً ، فليذكر أن طغيان فاروق — ومن خلفه إنجلترا وأمريكا — لم يهدم منه حجراً ، ولم يترك فيه ثغرة .. إن المستقبل لهذه العقيدة التي يقوم عليها بناء الاخوان ، وللنظام الاجتماعي الذي ينبثق من هذه العقيدة . . وفي كل أرض إسلامية اليوم نداء بالعودة الى الراية الواحدة ، التي مزقها الاستعمار ذات يوم ، ليسهل عليه ازدراد الوطن الإسلامي قطعة قطعة ، وقد آن أن تتضامُّ هذه المزق ، وتنتفض جسماً حياً كاملاً ، يمزق الاستعمار .

إن طبائع الأشياء تقتضي انتصار هذه الفكرة ، فلقد انتهت موجة التفكك والتمزق .. ولم تمت الفكرة الإسلامية في تلك الفترة المظلمة ، فهيهات إذن أن تموت اليوم في موجة اليقظة والانتفاض والإحياء ..

ولقد اختلطت الفكرة الإسلامية ببناء الاخوان المسلمين ، فلم يعد ممكناً أن يفصل بينهما التاريخ ، ومن ثَمَّ لم يعد ممكناً أن يفصل بينهما أحد في اليوم أو الغد ..

ولقد كان الاستعمار في الماضي يستخدم أجهزة للتخدير يلبسها ثوب الدين : استخدم رجال الطرق ، واستخدم رجال الأزهر ،

كما استخدمهم طغيان السراي .. أما اليوم فلم يعد ذلك ممكناً .. إن الفكرة الإسلامية اليوم ، يمثلها بناء الإخوان تمثيلاً قوياً ، فلا سبيل الى التمويه بأي جهاز .. والأزهر ذاته — وقد خضع للطغيان طويلاً ، وخضع للإستعمار — ها هوذا أخذ في الانتفاض والتحرر ، وهؤلاء طلابه وأساتذته ، ينضمون جماعات وأفراداً الى صفوف الإخوان ، المحضن الأول للفكرة الإسلامية كما ينبغي أن تكون .

« كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي ، إنّ الله قويٌ عزيز »

• • •

عدالة الأرض
ودم الشهيد حسن البنا

قضية هذا الدم الزكي لا تزال بين يدي القضاء، فلا تعليق لي عليها في موضوعها ووقائعها؛ ولكنها تثير في النفس اشجاناً، وتكشف في الوقت المناسب عن حقائق، وتوجه النظر الى حقيقة عدالة الأرض، وترفع البصر الى عدالة السماء، وتميز بين ما يصنعه البشر من القانون، وما يصنعه الله من الشريعة .. «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»

إن ممثل الاتهام يقول :

« وبما أن الواقعة – كما أظهرها التحقيق – تتلخص ؛ في أن الأميرالاي محمود عبد المجيد، بيّت النية على قتل المرشد العام لجماعة الاخوان المسلمين « المرحوم الشيخ حسن البنا » وإن لم يصل التحقيق الى تحديد إن كان في ذلك متفقاً عليه مع ولاة الأمور في الدولة – وقتئذ – أو انه كان يعمل لهذا، حتى يحظى بتقدير ولاة الأمور اولئك، لثقته في انهم اهدروا دم المجني عليه، فبات تنفيذ قتله أمنية يتوقون إليها ويروجون لتحقيقها .

وتنفيذاً لما بيّت الأميرالاي محمود عبد المجيد النيــة عليه، استقدم اليــه الأشخاص الذين يعرف فيهم الإستعداد الإجرامي

لارتكاب هـذه الجريمة ، والذين وقع اختياره عليهم لتدبيرها وتنفيذها، وهم الصاغ حسين كامل، واليوزباشي عبده ارمانيوس، والأمباشي أحمد حسين جاد ، ووكيل الباشاويش محمد اسماعيل، والامباشي حسين محمد بن رمضان ، والباشجاويس محمـد محفوظ محمد ، ومصطفى محمد أبو الليل ، ويوسف أبو غريب ... »

..الخ

وينتهي ممثل الاتهام الى المطالبة برؤوس هؤلاء الذين حددتهم عريضة الاتهـام ، ويقف مكتوف اليدين أمـام « ولاة الأمور أولئك الذين أهدروا دم المجني عليه » ، لأن قانون الأرض الذي بين يديه ، لا يساعده ولا يساعد العدالة على الأخذ بتلابيبهم على الأقل بتهمة « إهدار دم المجني عليه » ، وهم المكلفون حماية هذا الدم البريء .

والقضية بين يدي القضاء فيما يختص بالمتهمين ، فلا تعليق لي على موضوع الدعوى ولا حوادثها .. ولكن لنفرض ان المحكمة قد أجابت ممثـل الاتهام الى كل طلباته ، وسلمت اليه رؤوس هؤلاء المتهمين .. فماذا تساوي تلك الرؤوس بالقيـاس الى رأس حسن البنا ؟ وماذا تساوي تلك الدمـاء بالقياس الى ذلك الدم الزكي الذي أريق ؟

ألا ما أعجز عدالة الأرض حينئذ وما أقصرها عن العدل في أضيق معانيه !

إن أكبر الرؤوس في ذلك العهد الآثم، رؤوس «ولاة الأمور أولئك» كما يعبر عنهم ممثل الاتهام في احتقار . إن أكبر الرؤوس

يوم ذلك مجتمعة" ، لا تصلح أن تكون موطناً لقدم ذلك الشهيد الكريم ، ولا تحقق ذلك القصاص العادل من ذلك العهد الفاجر وممثليه أجمعين.. فكيف ببضعة رؤوس صغيرة أكبرها رأس ذلك الأمير الاي الصغير ؟

هنا تبدو عدالة الأرض قاصرة ، ويبدو تشريع الأرض هزيلاً ، ويبدو مشرعو الارض أقزاماً ..

وهنا تبدو المسافة هائلة بين تشريع الله للبشرية وتشريع الإنسان .

ما جزاء ولي الأمر الذي يهدر دم الأبرياء الطاهر ؟

ماذا تقول عدالة الأرض في ذلك الاتهام الذي يذكره ممثل الاتهام على سبيل الجزم والتأكيد ؟

لعل الحصانة الكاذبة « لولاة الأمور أولئك » هي التي قيدت يد ممثل الاتهام ، فلم يستطع اليهم سبيلا !

فأيُ زيفٍ زيف تلك الدساتير التي تسبغ الحماية على المجرمين ، وترفعهم فوق العدالة وفوق القانون ؟ وأيُ عجز في عدالة الأرض كلها وأيُ قصور ؟

إن عدالة الأرض هذه ، لتمنع محكمة النقض في مواطن كثيرة أن تحكم ببطلان الحكم الجائر ، إذا لم تجد سبيلا لقبول الطعن فيه شكلا ، فإذا كانت الإجراءات الشكلية كلها صحيحة ومستوفاة وقفت محكمة النقض عاجزة عن أن تنفذ الى الموضوع ،

ممنوعة من إحقاق الحق الذي تراه ،مكتوفة عن رفع الظلم الذي تعتقده !

وحتى حين تجـد منفذاً في الشكل ، فإنها تقف مكتوفة اليدين إذا لم تجـد في التطبيق القانوني الموضوعي خطأ . . مهما يكن الحكم مع ذلك جائراً .

ولقد وقف القاضي عبد العزيز فهمي هذا الموقف ، في قضية البداري : لا يجد سبيلاً الى دفع الظلم وتحقيق العدل إلا صرخة يبعثها من أعماق ضميره ، صرخة في وجه قانون الأرض الذي يقف جامداً مكبلاً بالاجراءات !

وتخطىء المحكمه ذاتها ، ثم يتبين لها الخطأ بعد أن تصدر حكمها ، فلا تملك حينئذ أن ترجع الى الصواب .. لقد خرج الأمر من يدها بمجرد اصدار الحكم !

ها ها ! ها ها لعـدالة الأرض الـتي ترى الحق واضحاً ، ولكنها لا تملك الرجوع إليه،لأن الأمر خرج من يدها (محافظة على الاجراءات) ! .

أما عدالة السماء فتقول : إن الرجوع الى الحق فضيلة ولا تمنع القاضي الذي يصدر الحكم ، ثم يتبين له خطؤه أن ينقض حكمه بنفسه ، وأن يرتد الى الحق ، لأن الحق أولى بالاتّباع .

وبالطبع لا تقف أمام محكمة أخرى أن ترد الحق الى نصابه بمجرد أن يتبين الحق ، غير مقيد بهذه (الشكليات) التي يؤثرها

قانون الأرض على العدل ، ويصون اعتبارها ولو بإهدار دماء الأبرياء .

فأين عدالة الأرض من عدالة السماء ؟ !

إننا حين نطلب للإسلام أن يحكم ، وحين نطلب لشريعته أن تكون مصدر التشريع .. إنما نطالب بشريعة أرقى ، وباجراءات أدق ، وبعدالة أكمل .

والجاهلون يقولون : أتريدوننا على أن نرتد الى الوراء أربعة عشر قرناً ؟ !

يا للغرور ! يا للجهالة ! إن قانونكم هو القاصر العاجز ، وإن تشريعكم هو المتأخر الجامد ..

إن شريعتنا التي ندعوكم إليها لا تغلُّ يد القاضي عن العودة الى الحق ، في أي وقت ، وفي أي دور من أدوار المحاكمة ، حتى بعد الحكم ، له أن يعود الى الحق الذي يراه .

إن شريعتنا لا تقف جامدة مشلولة أمام الظلم الواقع والعدل الضائع ، لأنها تريد المحافظة على كرامة الاجراءات دون كرامة العدل والحق والقضاء .

إن شريعتنا لا تقف عاجزة أمام ملك، ولا رئيس جمهورية، ولا رئيس وزارة ، ولا وزير ولا كبير .. فحيثما كانت جريمة فشريعتنا حاضرة لردع المجرم كائناً منصبه ما كان .

إن شريعتنا لا تسمي القاتل ولا المحرض على القتل صاحب

الجلالة ، ولا تصون ذاته المقدسة ، ولا تضعه فوق القانون .

إن شريعتنا لا تدع ولاة الأمور يهدرون دم الأبرياء ، ثم يروحون ناجين لا تمتد إليهم يد القانون الشلاء العزلاء .

لهذا نحن ندعو الى تحكيم شريعة الإسلام ، لأنها شريعة أكثر تقدماً ، وأوسع أفقاً ، وأكثر مرونة .. ولأن قانونكم الأرضي قاصر جامد متخلف لا يلبي داعي الزمن ، ولا يقتص لدماء الأبرياء !

• • •

تساوقت هذه الخواطر في نفسي وأنا أطالع صحيفة الاتهام ، وأنا أبصر بيد العدالة الأرضية قصيرة عاجزة شلاء . وأتطلع الى عدالة السماء فأراها شاهقة سامقة متفوقة شماء .

وقلت : ألا يفتح الله على هذه البشرية فتخرج من مضيق الأرض الى فسحة السماء ؟ ألا يكشف الله عن بصيرة الناس فيبصروا النور الذي يتخبطون دونه في دياجير الظلام ؟

إن أشد ما يثير الضحك المرّ .. رجال القانون عندنا ، أولئك الذين يحسبون شرائعهم عصرية تقدمية ، ويعدون شريعة الله قديمة ورجعية !

إنهم لا يكلفون أنفسهم النظر في شرائعهم وشريعةُ الله ، ليعلموا أن عقليه التشريع التي بين أيديهم جامدة قاصرة ، حين تقاس الى الشريعة السمحة الحرة الدقيقة العادلة .

إنهم جهلاء ويحسبون أنفسهم متحررين ؛ « وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض . قالوا : إنما نحن مصلحون ! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

غفر الله لهم وهداهم الى الحق . والحق منهم على قيد ذراع .

دعوتنا

دعوة الإخوان دعوة بسيطة واضحة ، لا تعقيد فيها ولا غموض. ومع هذا فقلّ أن نجد من يفهمها فهماً صحيحاً في خارج محيط الإخوان .

إن دعوة الإخوان هي دعوة الإسلام .. دعوة الى اقامة المجتمع على أسس إسلامية . فما هي هذه الأسس الإسلامية ؟

إن الإسلام عقيدة ، تنبثق منها شريعة ، ويقوم على هذه الشريعة نظام .. ولكن الأوطان الإسلامية تعيش فيها اقليات لا تؤمن بالإسلام ، ولها عقائد أخرى . فما يكون موقف هذه الأقليات من تطبيق النظام الإسلامي ؟

إن النظام الإسلامي ذاته يجيب على هذا السؤال ببساطة :

إن هذا النظام يكفل للأقليات حرية الاعتقاد كاملة ، فلا يمسها في عقيدتها ، ولا في عبادتها ، ولا في أحوالها الشخصية . فهذه كلها تجري وفق عقيدة كل أقلية ، بدون تدخل من الدولة إلا في حدود الحماية المفروضة لجميع العقائد ، شأنها شأن العقيدة الإسلامية في هذا النظام .

فأما التشريعات التي تحكم المجتمع ، وتحدد علاقاته الأخرى — خارج دائرة الأحوال الشخصية — فهي التي يحتم فيها الإسلام أن تكون وفق الشريعة الإسلامية . وشأن هذه الشريعة بالنسبة للأقليات ، شأن أي تشريع آخر ينظم الحياة الاجتماعية . فهو تشريع جنائي ومدني وتجاري ودولي ، قائم على أسس أخلاقية ترتضيها جميع الديانات . وهو من هذه الناحية أقرب الى روح المسيحية او روح اليهودية من التشريع الفرنسي الذي يحكمنا ، والذي يستند الى التشريع الروماني لوثني المادي أكثر مما يستند الى روح المسيحية .

فما الذي يضير أية أقلية ؛ في أن يكون التشريع المدني والتجاري والجنائي مستمداً من الشريعة الإسلامية ، ما دامت حرية الاعتقاد وحرية العبادة وحرية الأحوال الشخصية مكفولة في النظام الإسلامي ، لأن حمايتها جزء أساسي في هذا النظام ؟ وما دامت مبادىء الشريعة الإسلامية تتضمن أسساً للتشريع الحديث ، يعترف المشرعون المحدثون أنفسهم بأنها أرقى من التشريع المدني المستمد من التشريع الروماني .

أي فرق بين أن تستمد الدولة تشريعاتها من الشريعة الإسلامية او من التشريع الفرنسي بالنسبة للمسيحي مثلاً ؟ إن القانون الفرنسي لا يكفل له ضمانات أوسع مما تكفل له الشريعة ، ولا يمنحه في الدولة حقوقاً أكبر مما تمنحه الشريعة ، والشريعة لا تمس وجدانه الديني ولا عباداته الخاصة ولا أحواله الشخصية بل تكفلها له وتحميها حماية كاملة لا مزيد عليها .

وحتى في التشريع الجنائي والتجاري والمدني فإن ما يتعلق بالعقيدة وينبني عليها يلاحظ النظام الإسلامي فيه إلا يجبر الأقليات على تشريع يمس عقيدتهم .

فالإسلام مثلاً يحرم شرب الخمر على المسلمين، ويعاقب الشارب عقوبة خاصة . ولكن اذا كانت هناك أقليات تبيح عقائدها لها شرب الخمر . فإن الإسلام لا يعاقب هذه الأقلية .

والإسلام مثلا لا يعد الخمر او الخنزير ما لا مقوماً . فإذا كان الخمر او الخنزير ملكاً لمسلم وأتلف ، لم يكن على متلفه عقوبة ولا تعويض . فأما اذا كان ملكاً لغير المسلم ممن يبيح لهم دينهم تجارة الخمر والخنزير ، فإن المعتدي عندئذ يغرّم .

كذلك الزكاة ، فهي معتبرة في الإسلام ضريبة وعبادة في وقت واحد . ومن ثم لا يكلّفها أصحاب الديانات الأخرى — ما لم يرغبوا في أدائها — ولكنهم يدفعون مقابلها ضريبة لا تحمل معنى العبادة ، كي لا يجبروا على اداء عبادة إسلامية ، في الوقت الذي يجب أن يساهموا في التأمين الاجتماعي للأمة، لأنهم يتمتعون بثمرة التأمين الاجتماعي — الذي فرضت الزكاة من أجله — ويتمتعون بالضمانات الاجتماعية عن طريق هذا التأمين .

وهكذا نجد النظام الإسلامي يلاحظ أدق المشاعر الوجدانية لمعتنقي الديانات الأخرى ، لا في الأحوال الشخصية فحسب ، ولكن كذلك في دائرة التشريع الجنائي والمدني والتجاري . وهي قمة لا يبلغ اليها أي تشريع أرضي من التشريعات الحديثة .

وهناك سحب من التضليل حول الحكم الإسلامي ، فيما يختص بالعقوبات : فحكاية قطع يد السارق مثلاً تصاغ حولها أعجب التصورات الباطلة !

إن الكثيرين يتصورون عشرات الألوف من مقطوعي الأيدي غداة تطبيق الشريعة الإسلامية .. وهذا وهم غريب .. إن الإسلام لا يقطع يد السارق ؛ إلا بعد أن يوفر للجميع كل ضمانات الحياة المادية ، ويكفل لهم الكفاية من الطعام والشراب واللباس والسكنى وسائر الضروريات .. وبعد هذا لا قبله تقطع يد السارق . لأنه يسرق حينئذ بلا شبهة من حاجة او ضرورة . وحين توجد الشبهة فإنها تمنع الحد ، وتعالج الحالة بالتعزيز ، أي بالعقوبات الأخرى ، ومنها الحبس مثلاً .

فأي ضير يصيب مسلماً او غير مسلم في تطبيق نظام كهذا النظام ؟ وأي قلق يجوز أن يساور ضميراً إنسانياً ، لأن شريعة كهذه الشريعة تستمد منها القوانين التي تحكم الحياة .

• • •

والاخوان المسلمون يدعون الى تربية الناس على الأخلاق الفاضلة ليمكن أن ينفذوا التشريع بإخلاص ، ويراقبوا وجه الله في السر والعلن ، ويتبعوا بأعمالهم هدفاً أعلى من الأرض .. فماذا يضير الأقليات في هذه الدعوة ، وأديانهم تدعو الى مثل ما يدعو اليه الإسلام ، وتشترك معه في تهذيب الروح البشرية ورفعها الى مستوى اللائق بعالم يصدر عن الله .

والإخوان المسلمون يدعون الى تخليص الوطن الإسلامي كله من الاستعمار . وكل أهل رقعة مكلفون أولاً أن يخلصوا رقعتهم ، وأن يتعاونوا مع سواهم .. فماذا في هـذا من ضـير عـلى الذين يدعون الى القومية ، والإسلام يحقق أهدافهم القومية وزيادة ؟ وما الذي يضير الأقليات او غير الأقليات في الناحية القومية او غير القومية ، والإسلام يكافح لتحرير الجميع من كل استعمار .

وأعجب وهم يراود الكثيرين حول دعوة الإسلام أنهم يطالبون بحكومة دينية ، أي بتحكيم الشيوخ المعممين في شئون الحياة ! والإخوان المسلمون لم يقولوا يوماً مثل هذا الكلام . إنهم يطالبون بالحـكم الإسلامي ، أي بتنفيـذ الشريعة الإسلامية . والشريعة الإسلامية لا تقتضي عمـائم وشيوخاً ، لأن الإسلام لا يعرف هيئة دينية معينة تتولى السلطة . ومتى نفذت الشريعة الإسلامية فقد تحقق الحكم الإسلامي .

وتكوين هيئة الإخوان المسلمين ذاته ينفي فكرة حكومة رجال الدين – على الصورة الموهومة التي يظنها بعض الناس – فهم خليط من جميع طبقات الشعب ، ومن جميع أنواع الثقافات ، وليسوا هيئة دينية بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة في اوروبا او غيرها . فالتمسك بأن الحكم الإسلامي معناه حكم رجال الدين ، هو مجرد عملية تضليل وإيهام لا تستند الى شيء من الواقع .

إن دعوة الإخوان دعوة واضحة صريحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض . ولكن الجهل بحقيقة الإسلام هو الذي يسمح لذوي

الأغراض والمتعصبين أن يطلقوا هذه الأوهام ، فتجد من يصدقها بحكم الجهل الفاشي بين المسلمين أنفسهم في هذه البلاد .

إن الإنصاف يقضي أن نقول : إن دعوة الإخوان المسلمين دعوة مجردة من التعصب ، وان الذين يقاومونها هم المتعصبون ، او هم الجهلاء الذين لا يعرفون ماذا يقولون .

• • •

عقيدة وكفاح

حيّا الله الإخوان المسلمين .. لقد تلفتت مصر حين جدّ الجِدّ ، وتحرّج الأمر ، ولم يعد الجهاد هتافاً وتصفيقاً ، بل عملاً وتضحية ، ولم يعد الكفاح دعاية وتهريجاً ، بل فداء واستشهاداً .

لقد تلفتت مصر ، فلم تجد إلا الإخوان حاضرين للعمل ، مهيئين للبذل ، مستعدين للفداء ، مدربين للكفاح ، معتزمين الاستشهاد .

لقد تركوا غيرهم يخطبون ويكتبون ، أما هم فذهبوا فعلاً الى ساحات الجهاد . ولقد تركوا غيرهم يجتمعون وينفضون ، أما هم فقد حملوا سلاحهم ومضوا صامتين ...

غيرهم يحاول أن يأخذ طريقه الى العمل ، ويحاول أن يبدأ بالفعل في التدريب . أما هم فكانوا وحدهم عدة مصر المهيأة ، عدة مصر الحاضرة ، عدة مصر العاملة ، عدة مصر التي أعدت نفسها للجهاد ، فلبّت منذ اليوم الأول داعي الجهاد .

ومع بروز هذه الحقيقة ، فإن بعض السفهاء شرعوا أقلامهم ليحاربوا الإسلام . وبعض التافهين شرعوا ألسنتهم للنيل منهم .

ومن عجب أن تكون دعوى السفهاء والتافهين ان الإخوان يتحدثون عن القرآن والمعركة ثائرة في الميدان، الميدان الذي لم يقتحمه حتى اللحظة إلا الإخوان!

إن الصغار المهزولين لا يدركون روح الإسلام، التي يسير على هديها الإخوان. إن أرواحهم الهزيلة الضئيلة المدغولة لا يمكن ان ترتفع وتتسع لتشرف على تلك الآفاق العالية. انهم لا يؤمنون بأن لا كفاح بلا عقيدة، وإن أصحاب العقيدة هم الذين يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع. وإن الواقع العملي يؤيد هذه الحقيقة. وان الإخوان هم وحدهم اليوم في الميدان، لأنهم هم وحدهم أصحاب أضخم عقيدة تدفع بالمؤمنين دفعاً الى الميدان.

إن الوطنية الحارة المتحمسة قد تدفع بأصحابها الى النضال، وإن العدالة الاجتماعية الثائرة قد تدفع بأصحابها الى الكفاح .. ولكن هذه او تلك لا تزيد على أن مطلبها قريب، وأفقها محدود أما أصحاب العقيدة في الله – على طريقة الإخوان – فمطالبهم أكبر وآفاقهم أشمل.

إنهم يطلبون العزة للإنسان كافة، فهم أشد حماسة للوطن من حماسة الوطنيين المحدودين، وإنهم يطلبون العدالة في كل مجال، فهم أشد حماسة للعدل الاجتماعي من كل إنسان.

ثم إن لهم بعد هذا وذلك، أفقهم الأعلى والأكرم والأشمل، لأنهم يعملون لإعلاء كلمة الله في الارض، ولأنهم يصلون أنفسهم

بالله في كل خالجة ، ولأنهم يرجون عند الله أكبر مما ينفقون في سبيل لله : أكبر من المال ، وأكبر من النفس وأكبر من الحياة .

إنهم جنود الفداء كلما دعاهم داعي الفداء ... وحيثما دعاهم داعي الفداء .. إنهم باعوا أنفسهم لله منذ اشترى نفوسهم الله .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتـُلون ويُقتـَلون . وعداً عليه حقاً في التوارة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ »

وما كان لسفاهة سفيه ، ولا للمزة جاهل ، أن تنال من أصحاب عقيدة في الله ، حاربتهم ملة الكفر كلها ، وحاربهم الاستعمار متجمعاً ، وحاربتهم الاقطاعية متكتلة ، وحاربتهم الرأسمالية ظالمة ، وحاربتهم الشيوعية متجنية ، وحاربهم الخبث والفساد والشر والرذيلة جميعاً .. ثم ارتدت عنهم جميعاً: ارتدت محطمة خائبة خاسرة ، لأنها كلها من قوى الأرض، وهم عائذون بقوة السماء . ولأنها كلها من عالم الفناء وهم عائذون بعالم البقاء .

لقد صحت الأمة الإسلامية بعد طول سبات ، ولو كانت الى فناء وموت ما استيقظت من سبات. لقد صحت بعد نوم طويل، فليس من سنة الحياة أن تنام من جديد . لقد صحت لتحيا وصحت لتنمو ، وصحت لتنفض عنها الأوشاب والأخلاط .

وإذا كانت الأمة الإسلامية ما تزال تتعثر ، وما تزال تكبو وما تزال تضطرب . فتلك هي اختلاجة الحياة الجديدة ، لا سكرات الموت ، ولا صرعات الداء . تلك هي علائم الصحو

واليقظة بعد نوم طويل وهمود ، والمستقبل لها ، والدلائل كلها تشير الى هذا المستقبل .

إنه لا كفاح بلا عقيدة ، ولا حياة بلا عقيدة ، ولا إنسانية بلا عقيدة . ولقد كنا نقولها كلمات فيتخذها السفهاء الصغار لعباً ولهواً . أما اليوم فتقولها الوقائع ، وتقولها الأحداث . فاذا تشدق لسان تافه ، وإذا تلاعب قلم هزيل ، فتلك هموم التافهين المهزولين في كل زمان وفي كل مكان .

والله أكبر ، والمستقبل للإسلام

• • •

يا شباب

هأنذا – اللحظة عائد من سورية ولبنان أحمل إليكم تحيات إخوانكم هناك ، وأحمل معها تبعات جساماً يلقيها الناس كلهم على عاتقكم هناك . الناس الذين جربوا كل حزب ، وجربوا كل سياسة وجربوا كل وسيلة ، ثم انتهوا الى أن طريقكم أنتم هو الطريق .. وانتهوا الى تحميلكم أعباء المستقبل كلها : مستقبل هذه الأوطان المكافحة في سبيل الحرية ، وفي سبيل حياة أفضل ، حياة لائقة بالأمة التي قال الله فيها : كنتم خير أمة أخرجت للناس . »

يا شباب الاخوان ..

إن الناس في كل مكان يسألون عنكم ، وعن سياستكم ، وعن جهودكم ، وعن اتجاهاتكم .. فاعلموا إذن أن العيون كلها مفتوحة عليكم ، وأن الأنظار كلها متوجهة إليكم ، وأن كل صغيرة وكبيرة عليكم محصاة وأنكم لا تعيشون لأنفسكم ولا لوطنكم

الصغير – مصر – إنما تعيشون لهذا العالم المترامي الأطراف : العالم الإسلامي .

يا شباب الاخوان ... إنكم أنتم رجال المستقبل .

وإن المستقبل لكم أنتم في المعركة القادمة الفاصلة ، معركة التحرير الكبرى التي لا بد أن يخوضها الوطن الإسلامي ، والتي يخوض أطرافاً منها اليوم في تونس وفي مراكش وفي غيرهما من بقاع الأرض . المعركة مع الاستعمار في كل صوره وأشكاله ، سواء جاء في صورة مدافع ودبابات ، أم في صورة معاهدات واتفاقات ، أم في صورة جمعيات وجماعات ، تسخّر لها أجهزة الدول وصحافتها وإذاعتها كما ترون في هذه الأيام !

إن تونس ومراكش لتشتبكان في هذه الأيام في طرف من المعركة الفاصلة الحاسمة القادمة التي لا شك فيها . وأنتم تعرفون أن فرنسا لا تخوض هذه المعركة وحدها ، ولكن تخوضها وخلف ظهرها الاستعمار الغربي كله ، بما فيه ذلك الاستعمار الجديد الذي لا يبدو للشعوب بوجهه السافر ؛ إنما يتدسس إليهم في صورة جمعيات وجماعات تنفق بلا حساب ، وتعلن عن نفسها بلا حساب ، ولا تتقي أن يسأل الناس من أين لها هذا المال ؟ !

يا شباب الاخوان

إن واجبكم في المعركة القائمة لا يقف عند حد الهتاف لتونس ومراكش ، ولا عند حد لعن فرنسا وتمزيق إهاب السمعة الكاذبة التي ظل عبيد فرنسا يصوغونها لها في مصر ولبنان وفي كل مكان.

كلا كلا . إن واجبكم ليتعدى هذا الاطار الضيق ، يتعـداه الى تمزيق إهاب الاستعمار كله ، وإهاب الجمعيات والجماعات الـتي تعمل لحساب الاستعمار الجديد ، وتنفق لا بلا حساب فقط ، ولكن بلا خجل ولا حياء ..

إن الصحف لتشترى بالجملة في كل مكان — فواجبكم أنتم — وأنتم في كل مدينة ألوف . وفي كل قرية مئات — أن تكونوا ألسنة الدعوة ضد الاستعمار كله ، وضد عملاء الاستعمار . واجبكم أن تعوضوا عمل الصحف التي تشترى بالجملة في هـذه الأيام . واجبكم في الجامعة في وسط الشباب المثقف ، وواجبكم في المجالس العامة ، وواجبكم في الطرقات ، وواجبكم في القرى والكفور .

وأنتم يا شباب الاخوان ، ، أنتم وحدكم ، الذين تملكون أن تكونوا منشورات حية تذهب الى كل مكان ، وتدخل الى كل بيت ، وتسعى الى كل مدرسة ، وتنشر الوعي الشعبي ، وتفضح المؤامرات الاستعمارية ، وتكشف عن المؤامرة البشعة على تونس ومراكش ، وسائر الشعوب المبتلاة بالاستعمار وبعملاء الاستعمار .

يا شباب الاخوان .. يا من تصل اليهم هذه الكلمات في مجلة الدعوة .. إن في عنق كل واحد منكم أن يقرأ هذه الكلمات لعشرة من الناس على الأقل ، عشرة من الناس في أي مكان ، فنحن في موقف فاصل مع عملاء الاستعمار ، لا في مصر وحدها ولكن في العالم كله . ولا بـد أن نقضي على الاستعمار ، وأن

نفضح عملاء الاستعمار .

يا شباب الاخوان

هذه دعوة عاجلة ألقيها إليكم على أثر عودتي : **أحملها إليكم** مع تحيات اخوانكم في كل مكان .. حتى ألتقي بكم في اجتماعاتكم وحتى نتدبر **معاً** كيف نكافح ، لا لمصر وحدها ، **ولا** لتونس ومراكش وحدهما . ولكن لكل شبر في هذه الأرض تدنسه أقدام الاستعمار ، ويعمل فيه عملاء الاستعمار .

والسلام عليكم ورحمة الله

أخوكم

سيد قطب

من كتب دار الشروق الإسلامية

مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء

تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت

المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي

أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت

نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين

ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير

الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام

محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب
الإمام الغزالي

الأدب في الدين
الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي

تاريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفَّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي